

الباب الرابع

رومة الرواقية

٥٠٨ - ٢٠٢ ق . م

ترى أى صنف من الخلق كان أولئك الرومان البواسل الذين لا يقهرون ؟ وأى نظم صاغتهم حتى كانت لهم هذه القوة فى الأخلاق والسياسة المنقطعة النظير ؟ كيف كانت بيوتهم ومدارسهم ؟ وكيف كان دينهم ومبادئهم الخلقية ؟ وكيف استخرجوا من الأرض تلك الثروة التى كانوا فى حاجة إليها ليعمروا بها مدنهم النامية وיעدوا بها جيوشهم المتجددة على الدوام والتى لم تعرف الراحة فى يوم من الأيام ؟ وبأى نظام اقتصادى وأية مهارة انتفعوا بهذه الثروة خير انتفاع ؟ وكيف كان هؤلاء الناس فى طرقاتهم وحوانيتهم ، وفى هياكلهم ومسارحهم ، وفى علمهم وفلسفتهم ، وفى شيخوختهم وموتهم ؟ إنا إذا لم نلهم كل الإلام بما كانت عليه رومة فى عهد الجمهورية الأول ، عجزنا عن فهم ذلك التطور الشامل فى العادات والأخلاق والأفكار ، الذى أنتج فى جيل من الأجيال كاتو Cato الرواقى وفى جيل بعده نيرون الأبيقورى ، ثم بدل آخر الأمر الكنيسة الرومانية بالإمبراطورية .

الفصل الأول

الأسرة

كان ميلاد الأطفال نفسه مغامرة خطيرة في رومة ؛ فقد كانت العادات المألوفة تبيح للأب إذا ولد له طفل مشوه أو كان أنثى أن يعرضه للموت (١) . أما إذا لم يكن كذلك فقد كان يرحب بمولده ؛ لأن الرومان حتى في ذلك العهد البعيد ، وإن مارسوا عادة ضبط النسل إلى حد ما ، كانوا شديدي الرغبة في أن يكون لهم أبناء . ذلك أن الحياة الريفية قد جعلت الأبناء مصدراً من مصادر الثروة ، ولذلك كان الرأي العام يندد بالعم ، كما كان الدين يشجع على الإكثار من النسل بما يدخله في عقول الرومان من أن الواحد منهم إذا مات ولم يكن له ولد يعنى بقبره ، قاست روحه ألوان الشقاء والعذاب إلى أبد الدهر . وكانوا إذا مضى على مولد الطفل ثمانية أيام احتفلوا حول موقد النار احتفالاً رسمياً مهيباً بضمه إلى الأسرة والعشيرة . وكانت العشيرة (gens) تتألف من طائفة من الأسر الحرة تنتمي إلى أصل واحد ، وتسمى باسمه ، وتشارك بعضها مع بعض في العبادة ، وتتبادل العون في السلم والحرب . وكان الولد الذكر يعرف باسمه الخاص الأول (praenomen) مثل بيليوس Publius ، أو ماركس Marcus ، أو كيبوس Caius ، وباسم عشيرته (nomen) مثل كرنليوس Cornelius أو تليوس Tutlius ، أو يوليوس Julius ؛ وباسم أسرته مثل سيبو Scipio ، وشيشرون Cicero ، وقيصر Caesar . أما النساء فكان في أغلب الأحيان يتميزن بأسماء عشائرن وحدهن مثل كرنليا Cornelia ، وتليا Tullia ، وكلوديا Claudia ، ويوليا Julia . وإذا لم يكن للذكور في الأيام القديمة الأولى من الأسماء الأول ما يزيد على خمسة عشر اسماً ،

وكانت هذه الأسماء تتكرر في الأسرة الواحدة جيلاً بعد جيل تكراراً يجعل التمييز بين مسمياتها من أصعب الأمور ، فقد اعتاد الرومان أن يختصروا هذه الأسماء الأولى فيستعيضوا عنها بالحروف الأولى منها ويضيفوا إلى أصحابها اسماً رابعاً - وخامساً في بعض الأحيان - ليسهل تمييزهم بعضهم من بعض . ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يميزون سيپوقاھر هنيبال من سيپه الذي دمر قرطاجنة بتسمية الأول پ ه كرنليوس سيپو الإفريقي الأكبر **P. Cornelius Scipio Africanus Major** ، والثاني پ . كرنليوس سيپو إيميليانس الإفريقي الأصغر **P. Cornelius Scipio Aemilianus Africanus Minor** .

وكان الطفل يجد نفسه وقد اندمج كل الاندماج في أحص النظم الرومانية الأساسية وأقواها أثراً وهو نظام الأسرة الأبوية . وتكاد سلطة الأب في هذه الأسرة أن تكون سلطة مطلقة من كل القيود ، كأنما الأسرة قد نظمت لتكون وحدة عسكرية من جيش في حرب دائمة ، وكان الأب وحده دون سائر أفراد الأسرة هو الذي له حقوق قانونية في عهد الجمهورية الأول ، فهو وحده الذي كان من حقه أن يشتري الملك ويحتفظ به أو يبيعه ، وأن يتعاقد باسمه ، وحتى بائنة زوجه كانت في ذلك العهد ملكاً له . وإذا ما اتهمت زوجته بجرمة أحييت إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه ، وكان في مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته أو سرقت مفاتيح خزائن خمره . وكان له على أبنائه حق الحياة والموت أو بيعهم في الأسواق بيع الرقيق . وكان كل ما يكسبه الابن يصبح في نظر القانون ملكاً خالصاً لأبيه ، ولم يكن من حقه أن يتزوج من غير موافقة والده . وكانت البنت إذا تزوجت بقيت تحت سلطان أبيها ، إلا إذا سمح لها أن تتزوج **Cum manu** أي أسلمها بنفسه إلى يد زوجها أو وضعها تحت سلطانه . وكان له على عبيده سلطة لا حد لها ؛ فكان هو وزوجته وأبناؤه « ملك يده » **mancipia** ؛ ومهما يبلغ هؤلاء العبيد من السن أو المنزلة فإنهم يبقون تحت سلطانه حتى يحررهم هو

أو « يطلقهم من يده » emancipate them على أن العادات ، والرأى العام ، ومجلس العشيرة ، وقانون الريفورين (المقدمين) كانت تقيد حقوق « رب الأسرة » إلى حد ما . أما فيما عدا هذه القيود فقد كان يحتفظ بهذه الحقوق إلى أن يموت ، وكانت تبقى له ولو ذهب عقله أو أراد هو أن يتخلى عنها . وكان من آثارها أن قويت وحدة الأسرة فكانت هي الأساس الذي قامت عليه أخلاق الرومان وحكومتهم ، وأن أدب الرومان تأديباً بعث في أخلاقهم صلابة وقوة خير ما توصف به أنها قوة رواقية وكانت قوانينهم في حرفيتها أشد منها صرامة في تطبيقها ، وقلما كانوا يطبقون أقصى هذه القوانين ؛ وقلما أساءوا استخدام ما كان منها أقل قسوة ؛ فلم يكونوا يقفون في سبيل حنان الآباء القوي الطبيعي على أبنائهم أو تعظيم الأبناء لأبائهم ، حتى لقد كانت شواهد القبور في رومة تباع من الرقة ما بلغته في بلاد اليونان وما بلغته عندنا نحن (*) في هذه الأيام .

وإذ كانت حاجة الرجل إلى المرأة - وهي أشد من حاجتها إليه - تكسبها من الحقوق ما لا تستطيع القوانين أن تقف في وجهه ، فليس لنا أن نحكم على مكانة المرأة في رومة من القيود التي يفرضها عليها القانون . فقد كان يحرم عليها أن تظهر في دار المحكمة ولو كانت شاهدة . وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأى حق لها في ماله ؛ وكان له إذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال . وكانت في كل أدوار حياتها تحت رقابة رجل - أبها أو أخيها ، أو زوجها ، أو ابنها أو وصي عليها - لا تستطيع أن تزوج أو تتصرف في ماله بغير رضاه ، لكنها كان من حقها أن ترث وإن حدد هذا الميراث بما لا يزيد على مائة ألف سسترس Sesterce أى نحو (١٥,٠٠٠ ريال أمريكي) . أما التملك فلم يكن مقيداً بحد أقصى وكثيراً ما أصبحت النساء في تاريخ الجمهورية

المتأخر من ذوات الثروات الطائلة لأن أزواجهن كانوا يهربون لهم
أملآكهم ليتخلصوا بذلك من عليهم من التزامات إذا أفلسوا في تجارة ،
أو حكم عليهم بتعويض ، أو ليمتصوا من ضرائب الشركات ، وغير ذلك
من الأخطار التي لا نهاية لها . وكان لها في شؤون الدين شأن غير قليل ؛
فكان لها أن تكون كاهنة ؛ وكان من الواجبات المفروضة على كل
كاهن تقريباً أن تكون له زوجة ، فإذا ماتت حرم من منصبه . أما في
المنزل فكانت هي سيده المظمة *mea domina* ؛ ولم تكن كالزوجة في
الحياة اليونانية تحجز في جناح الحریم بل كانت تتناول الطعام مع زوجها
وإن كانت تجلس منتهصة ويجلس هو متكئاً . وكانت لا تقوم إلا بأقل قدر
من الخدمة المنزلية ، وذلك بأنه كان لكل مواطن تقريباً عبد يقوم على
خدمته . وكان لها أن تغزل لتدل بذلك على دماثة أخلاقها ، ولكن أهم
واجباتها المنزلية هو مراقبة خدمها . على أنها مع ذلك كانت تحرص على أن
تربي بنفسها أطفالها . وكان هؤلاء الأبناء يجزونها على صبرها وقيامها
بواجبات الأمومة بما يقدمونه لها من دلائل الحب العميق والإجلال العظيم ،
وقلما كان زوجها يجعل سيادته الشرعية عليها تطغى على حبه لها .

وكان الأب والأم ، ودارهما وأرضهما وأملآكهما ، وأطفالها الصغار
وأبنائهما المزوجون ، وأحفادهما أبناء هؤلاء الأبناء وزوجاتهم وعبيدهم
ومواليهم - كان هؤلاء كلهم يؤلفون الأسرة الرومانية *Familia* ؛ ولم
تكن هذه الكلمة عندهم تعنى أسرة بقدر ما تعنى بيتاً بكل من فيه ، وما فيه .
فلم يكن هذا المعنى مقصوراً على جماعة من ذوى القربى ، بل كان يعنى
مجموعة من الأشخاص المملوكين والأشياء المملوكة ، يخضعون كلهم ،
وتخضع كلها ، لأكبر الذكور سنّاً . وفي نطاق هذا المجتمع الصغير الذي
يضم في داخله وظائف الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة ، والنظم الصناعية
والحكومية ، شب الطفل الروماني وترعرع على حب الطاعة والتقوى ،
فكان منه مواطن قوى صلب العود في دولة لا تغلب .

الفصل الثاني

دين رومة

١ - الآلهة

لقد كانت الأسرة الرومانية رابطة بين الأشخاص والأشياء ، كما كانت رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة والآلهة من جهة أخرى . وكانت هي المركز الذي يلتف حوله الدين ، والحلق ، والنظام الاقتصادي ، وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هي المنع الذي تُستمد منه هذه المقومات كلها . وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطاً وثيقاً جلياً بالعالم الروحي ؛ فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التي لا تتمد ليست إلا رمز الإلهة فستا Vesta وهادتها ، وأنها ، هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها ؛ ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنظف هذه النار ، وأن يُعنى بها العناية « المقدسة » وأن تغذى بنصيب من كل وجبة . وكان الطفل يرى فوق الموقد النضبات (*) تتوجهها الأزهار وتمثل آلهة الأسرة أو أرواحها المقدسة : إللار ، Lar (***) الذي يحرس حقولها ومبانيها وسعادتها ومصيرها ؛ والپينات Penates أو الآلهة الداخلية التي تحمي ما تجمع للأسرة في مخازنها وأصونتها وبيادرها ؛ وكان الإله يانوس Janus يحوم حول

(*) النضمة الصورة تعبد . (المترجم)

(**) إللار : أحد الآلهة المحليين وهو تسكاني الأصل وأسكن الرومان جعلوا فيما بعد أحد الآلهة الراعية للأسرة .

عتبة الدار وإن كانت الأعين لا تراه ، وكان ذا وجهين ، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً بل معناه أنه كان يرقب الداخلين والخارجين من كل باب . وكان الطفل يعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمز القوة الخلاقة الداخلية (genius) التي لا تفتى بفناء الجسم بل يجب أن تتغذى على الدوام عند قبر الأب . وكانت الأم هي الأخرى تحمل ربياً من الأرباب ، وكان عليه أن يعاملها أيضاً معاملة الآلهة . وكان فيها يونيو Juno وهو روح قدرتها على الحمل يقابل قدرة الأب على الخلق . وكان للطفل أيضاً يونيو Juno وهو ملاك الحافظ وروحه أو النواة الإلهية في غلافه الفاني . وكان يقال له فولاً يبعث في قلبه الرهبة ، إنه يحيط به من كل مكان أطياف رحيمة Di Manes هي أطياف الذكور من أسلافه التي كانت أقنعة وجوههم الرهيبية معلقة على جدران المنزل تحذره من أن يتنكب طريق هؤلاء الأسلاف ، وتذكره بان الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الذين كانوا في الأيام الحالية أو سيكونون في الأيام المقبلة أعضاء فيها بأجسامهم ، والذين يكونون لهذا السبب جزءاً من مجموعها الروحي ووحدها الأبدية .

وكانت أرواح أخرى تأتي لمعونته كلها كبر : فكوبا Cuba تحرسه وهو نائم وأبيونا Abeona تهدي خطاه ، وفيلينا Fabulina تعلمه الكلام . وإذا ما غادر المنزل وجد نفسه مرة أخرى في حضرة الآلهة أينما جل . وكانت الأرض نفسها آلهة فهي قارتا تلس Tellus وتارة ترامتر Terra Mater أي الأرض الأم ، وكانت أحياناً هي المريخ Mars أي الأرض التي يطوؤها بقدميه وخصبها المقدس ، وأحياناً تكون هي الآلهة الصالحة Bona Dea التي تمد النساء والحقول بالأرحام الخصيبة . وكان في المزرعة إله معين لكل عمل وكل بقعة فيها ، پومونا Pomona للبياتين ، وفونس Faunus للماشية ، وپالس Pales للمراعي ، واستركيولس Sterculus لأكوام السماد ، وزحل Saturn للزرع ، وسيريز Ceres للحاصلات ، وفرناكس Fornax لتحميص الذرة في التنور ، وفلكان Vulcan لإيقاد النار .

وكان يشرف على الحدود الإله العظيم ترمينس *Terminus* وهو يتمثل ويعبد في الحجارة والأشجار التي تحدد المزارع ، وإذا كانت الأديان غير الرومانية تتطلع إلى السماء ، فإن الرومان أنفسهم لم يكونوا ينكرون أن فيها هي الأخرى آلهة ، ولكن المحور الذي كانت تدور حوله أعظم مظاهر تقواه وإيمانه وأخلص كفارته واستعطافه كان هو الأرض أم حياته ومصدرها ، ومنزل أمواته ، والمربية الساحرة للهدور النامية ، وإذا ما حل شهر يناير من كل عام أقيمت الصلوات للارات *Lares* الأرض في عيد ملتقى الطرق *Compitalia* أو *Crossroads* البهيج ، وإذا أقبل شهر يناير قدمت الهدايا الغالية مرضاة لتلس *Tellus* واستدرااراً لعطفه على كل المزروعات ؛ وفي شهر مايو من كل عام يسير كهنة « إخوان أرفال *Arval* » إلى إخوان الحرث في موكب غنائى حول حدود المزارع المجاورة لهم بطوقون الحجارة بتيجان من الزهر ، ويرشون عليها دماء الأضاحى ، ويدعون المريح (الأرض) أن تخرج الفاكهة الموفورة . ويرى من هذا أن الدين كان يؤمن الملكة ، ويزيل أسباب الشحنةاء ، ويكرم العمل في الحقول ، فينشئ فيه الشعر ، ويؤلف فيه المسرحيات ، ويقوى الجسم والروح بالإيمان والعمل .

ولم يكن الروماني ، كما كان الإغريقي ، يفكر في آلهته كأن لها صوراً كصور الآدميين ، ولم يكن يسمها إلا ميمينا *Mumina* أى الأرواح ، وكانت هذه الآلهة في بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة ، أو الشباب ، أو الذاكرة ، أو الحظ ، أو الشرف ، أو الأمل ، أو الخوف أو الفضيلة ، أو العفاف ، أو الوفاق ، أو النصر ، أو رومة . وكان منها أرواح للمرض يصعب استرضائها كالأطياف وأرواح الموتى ؛ ومنها أرواح فصول السنة ، مثل *Maia* روح شهر مايو ؛ ومنها آلهة الماء مثل نبتون *Neptune* ، وأرواح للغابات أو الآلهة التي تسكن الأشجار مثل سيلفانوس *Silvanus* ، وكان بعضها يتقمص الحيوانات المقدسة كالحصان أو الحيوان الذبيح ، أو الإوز المقدس الذي كان المتقون يحتفظون بها فوق الكبتول

لا يناله أحد بأذى ، ومنها أرواح التناسل والإنتاج : تتومس يشرف على الحمل ، ولوسينا تحمى الحيض والولادة ، وكان پريابس Priapus إلهما للإخصاب عند اليونان ، ولكنه سرعان ما سكن رومة ، وكانت العذارى والأمهات (إذا كان لنا أن نصدق القديس أوغستين الغاصب) يجلسن على قضيب تمثاله ليضمن بذلك استعدادهن للحمل (٢) . وكانت صور خليعة فاحشة لهذا الإله تزين كثيراً من الحدائق . وكان السذج من الأهلين يلبسون صوراً صغيرة منه ظاهر فيها قضيبه لتبهيم القدرة على التناسل أو ترد عنهم « العين الحاسدة » . وجملة القول أننا لا نعرف قط دينا يبلغ فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان ، ويقدرها فارو بثلاثين ألفاً ، ويشكو پترونيوس من أن بعض المدن الإيطالية كان فيها من الآلهة أكثر ممن فيها من الرجال ؛ لكن الذين يسميهم پترونيوس deus لم يكونوا كلهم آلهة ؛ لأن كلمة deus كانت تعنى عند الرومان قديساً أو إلهاً .

وكان يكمن تحت هذه الأفكار الأساسية حشد من العقائد الشعبية المتعددة الأشكال ، من عبادة الطبيعة ، والداككيرية (feteshism) ، والطوطمية والإيمان بالسحر ، والمعجزات ، والرقى ، والخرافات ، والمحرمات ، ومعظمها عقائد باقية من أيام سكان إيطاليا فيما قبل التاريخ ، ولعلها باقية من أيام أسلافهم الهندوربيين جاءوا بها من موطنهم القديم في قارة آسية . وكان الكثير من الأشياء والأماكن والأشخاص مقدساً (sacer) محرماً مسه أو تدنيسه ، ومن هؤلاء الأشخاص الأطفال الحديثو الولادة ، والنساء في وقت الحيض ، والمجرمون إذا أدينوا . وكانت مئات من الصيغ اللفظية أو المبتكرات الآلية تستخدم للوصول إلى غايات طبيعية بوسائل خارقة للطبيعة ، فكانت التائم شائعة بينهم لا يكاد يخلو منها واحد منهم ؛ وكان كل طفل تقريباً يلبس « بُلَّة » Bulla أو طلمساً ذهبياً معلقاً في عنقه ، وكانت تماثيل صغيرة تعلق على الأبواب أو الأشجار لترد الأرواح الخبيثة ، وكانت الرقى والتعاويذ السحرية تستخدم لمنع الأخطار ،

والشفاء من الأمراض ، وإنزال المطر من السماء ، وإهلاك جيوش الأعداء ، وإتلاف محصولات العدو أو إهلاكه هو نفسه . ومن أقوال بلاني Pliny في هذا : « كلنا نخشى أن تصيبنا اللعنات أو الطلسم بالسوء (٤) » . كذلك يرد ذكر الساحرات في أقوال هوراس Horace ، وفرجيل Virgil ، وتبيلوس Tibulus ، ولوشيان Lucian . وكان الاعتقاد السائد أنهم يأكلن الأفاعى ويطنن في الهواء ليلاً ، ويعصرن السم من أعشاب لا يعرفها غيرهن ؛ ويقتلن الأطفال ، ويحيين الموتى . ويلوح أن الرومان جميعاً ، إلا قليلاً من المتشككين ، كانوا يؤمنون بالمعجزات ، وبالآلهة والطيقة ، وبأن التماثيل تتحدث وتعرق (٥) ، وبأن الآلهة تنزل من جبل أولمبس Olympus . لتحارب في صف الرومان ، وبأن الأيام الفردية الأسماء محظوظة ، والزوجية الأسماء منحوسة ، وبأن الحوادث الغريبة تنبئ بالمستقبل ، ويحتوى تاريخ بلاني على عدة مئات من أمثال هذا الإنباء يسجلها كلها بوقاره الفاسق . وفي مجلدات بلاني الأكبر Pliny من التنبؤات ووسائل العلاج السحري ما يصبح لنا أن نسمى تاريخه « تاريخ خوارق الطبيعة » . وكثيراً ما كان يحدث أن تؤجل أهم الأعمال التجارية أو الحكومية أو الحربية أو تلغى إلغاء تاماً إذا تشاءم الكاهن بأن وجد شيئاً غير مألوف في أمعاء ذبيحة ، أو سمع قصف رعد في السماء .

وكانت الدولة تبذل كل ما في وسعها لتحد من الإسراف في هذه العادات ، وكان يطلق عليها ذلك اللفظ الذى يعبر عنها أدق تعبير وهو لفظ Supersitits أى العقائد الدينية المفرطة . ولكنها كانت لا تقعد قط عن استغلال تقوى الشعب لتثبيت دعائم الحكم والنظام الاجتماعى فكيف آلهة الريف لتوائم حياة الحضر ، وشادت موقداً قومياً للإلهة قستا ، وعينت طائفة من العذارى القستيات لتقوم على خدمة نار المدينة المقدسة ، وأخرجت من مجموع آلهة الأسرة والمزرعة والقرية الآلهة القومية للدولة di indigetes ، ونظمت لهذه الآلهة عبادة جديدة جميلة المنظر تقوم بها الدولة باسم جميع المواطنين ،

وكان أحب هذه الآلهة القومية الأولى إلى قلوب الشعب الإله جوبيتر أو جوف Jupiter or Jove وإن لم يكن هذا الإله قد أصبح ملكها كما أصبح زيوس Zeus عند اليونان ، بل كان في القرون الأولى من حياة رومة لا يزال قوة نصف معنوية يمثل رقعة السماء المتلاثلة وضياء الشمس والقمر وقصف الرعد ، وكان في صورة جوبيتر فلوفثيوس Jupiter Fluvius يمثل شووبوبا من المطر المخصب . وقد كان فرجيل وهوراس نفساهما يستعملان في بعض الأحيان لفظ « Joue » مرادفاً للفظ المطر أو السماء (٦) . وكانت أكثر نساء رومة ثراء إذا أجذبت السماء يسرن حافيات في موكب كبير إلى تل الكبتولين حيث هيكل جوبيتر تونانز Jupiter Tonans - جوف المرعد - ليستسقين . ولعل لفظ جوبيتر محرف عن ديسپاتر Diuspater أو ديسپتر Diespeter أى إله السماء . ولعل يانوس Janus الذى كان في الأصل يسمى ديانوس Dianus كان يؤلف هو وجوبيتر في بداية الأمر إلهاً واحداً ، وكان يرمز به أولاً إلى روح باب الكوخ ذى الوجهين ثم إلى باب المدينة ، ثم إلى أية فتحة أو بداية كبداية اليوم أو السنة . وكانت أبواب هيكله لا تفتح إلا في أيام الحرب ليخرج منها مع جيوش رومة لهزيمة آلهة الأعداء . وكان المريخ Mars إلهاً معظماً عند الشعب منذ بدأ يعظم جوبيتر . وكان أولاً إله الحرث ، ثم أصبح إله الحرب ، ثم كاد أن يكون هو فيما بعد رمز رومة وشعارها ؛ وكانت كل قبيلة في إيطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور ، ولم يكن زحل الإله القومى للبندرة الحديثة الزرع (Sata) أقل قدماً من جوبيتر والمريخ ، وكانت الأساطير تصوره على أنه ملك من ملوك ما قبل التاريخ أخضع القبائل كلها لقانون واحد وعلمها الزراعة وأقر السلام والمشايعة في العهد الذهبى من عهد زحل Saturnie Regina

وكانت إلهات رومة أقل قوة من آلهتها ، ولكنهن كن أحب إلى قلوب الشعب من الآلهة الذكور . وكان من هذه الإلهات يونو رجينا Juno Regina

ملئكة السماء وحامية الأثوثة والزواج والأمومة . وكانوا يوصون بالزواج في شهرها - شهر يونيو (٧) - ويقولون إن الزواج فيه أسعد الزيجات ؛ وكانت منيرفا Minerva إلهة الحكمة (mens) أو الذاكرة ، والصناعات اليدوية وطوائف الصناع ، والممثلين والموسيقين والكتبة . وكانت الپلاديوم Palladium التي تقف عليها في اعتقادهم سلامة رومة صورة صغيرة للإلهة پلاس منيرفا Pallas Minerva مدججة بالسلاح جاء بها إنياس Aeneas في زعمهم من طروادة إلى رومة بأساليب الحب والحرب ؛ وكانت فينوس Venus (الزهرة) إلهة الشهوة ، والزواج ، والإخصاب . وكان شهرها المقدس هو شهر إبريل شهر تفتح الأزهار Aperire . وكان الشعراء أمثال لكريشيوس Lucretius وأوفد Ovid يرون فيها الملشأ للغرائم لجميع الكائنات الحية ؛ وكانت ديانا Diana إلهة القمر والنساء والولادة والصيد والغابات وسكانها من الوحوش ؛ وكانت في زعمهم روح شجرة جىء بها من أريشية (Aricea) حينما خضع هذا الإقليم من أقاليم لانيوم لحكم رومة ؛ وكان بالقرب من أريشيا بحيرة نيمي Nemi وأيكتها ، وكان في هذه الأيكة مزار ديانا ملجأً للحجاج الذين كانوا يعتقدون أن هذه الإلهة قد ضاجعت في هذا المكان فريبوس Virbius ملك الغابات الأول ، ولكي يضمن دوام إخصاب ديانا وإخصاب الأرض كان خلفاء فريبوس - وهم كهنة الصائدة وأزواجها - يستبدل بهم جميعاً واحداً بعد واحد أي عبد قوى يعود نفسه يفصن (يسمى عندهم بالفصن الذهبي) يأخذه من شجرة البلوط المقدسة إحدى أشجار الأيكة ويهاجم الملك (*) وينبجه ؛ وقد بقيت هذه العادة إلى القرن الثاني بعد ميلاد المسيح (٨) .

هذه إذن هي الآلهة الكبرى لدين رومة الرسمي ؛ وكان للأهلين غير هؤلاء أرباب قومية أصغر منها ولكنها لم تكن تقل عنها محبة لدى الرومان ؛ ومن هذه

(٥) يقصد ملك الأيكة أي صورة له . (المترجم)

الأرباب الصغرى هرقل Hercules إله الفرع والخمر الذى لم يتورع عن أن يقامر وهو مبتهج مع قنذلقت هيكله لينال منه محظية (٩) . وكان عطاردا (Mercury) راعى التجار والممثلين واللصوص . وكانت أفسس Aps إلهة الثروة وبلونا Bellona إلهة الحرب ، وكان غير هؤلاء أرباب ذكور وإناث يخططهم الحصر . ولما أن بسطت رومة سلطانها جاءت إليها آلهة جديدة . وكانت فى بعض الأحيان إذا غلبت مدينة جاءت منها بآلهتها لتضمها إلى مجمع الآلهة الرومانى دليلاً على غلبتها وضماناً لهذه الغلبة كما فعلت بيونو إلهة قباى حين قادتها أسيرة إلى رومة ؛ وكان سكان الأقاليم النائية إذا جاءوا إلى العاصمة أتوا معهم بآلهتهم ليثبتوا فيها أقدامهم حتى لا تجتث أصول أولئك السكان الجدد الروحية والأخلاقية اجتنائاً مفاجئاً لسبب من الأسباب ، وكذلك يفعل اليوم المهاجرون إلى أمريكا فيأتون إليها بآلهتهم . ولم يكن الرومان يأبهون بمجئ هؤلاء الآلهة الأجانب ؛ وكان معظمهم يعتقدون أنهم إذا أزاحوا التمثال من مكانه أزاحوا الإله معه ، ومنهم كثيرون كانوا يؤمنون بأن التمثال نفسه هو الإله (١٠) .

على أن بعض الآلهة الجديدة لم تغلب ، بل كانت هى الغالبة . فقد تسربت إلى العبادات الرومانية بطريق التجارة والصلات الحربية والثقافية التى نشأت بين الحضارتين الرومانية واليونانية . وقد حدثت هذه الصلات أول الأمر فى كمانيا ثم جنوبى إيطاليا ثم صقلية ، وانتهت آخر الأمر فى بلاد اليونان نفسها . وكان فى آلهة دين الدولة شىء من التجرد المعنوى وبرود الطبع ؛ وكان من المستطاع رشوهم بالقرابين والتضحيات ، ولكنهم قلما كانوا يمدون عبادهم بالراحة أو الإلهام الفردى ؛ وكانوا من هذه الناحية يختلفون عن آلهة اليونان ذوى الصفات البشرية الممثلين مغامرة وفكاهة وشعراً . ومن أجل هذا رحب الشعب الرومانى بآلهة اليونان وأقام لهم الهياكل ، وسره أن يتعلم ما يتطلبه أولئك الآلهة من مراسم وطقوس ، وكذلك سر الكهنة الرسميين أن يجندوا أولئك الجند الجدد لبيت

النظام والطمأنينة في النفوس ، فضموهم إلى أسرة رومة المقدسة ومزجوهم
كلما استطاعوا بأقرب الآلهة الوطنية المماثلة لهم . فجاء من عهد بعيد أى من عام
٤٩٦ ق . م ديمتر Demeter وديونيسيوس Dionysius ومزجا بسيريس
Ceres وليبر Liber (إله العنب) واستقبل كاستر Castor وپلكس
Pollax بعد اثني عشر عاماً من ذلك الوقت وصارا حامبي رومة : وشيد
في عام ٤٣١ هيكلاً لأپولون Apollo الشافي لعله يخفف من وباء طاعون
فشأ في رومة وقتئذ ؛ وفي عام ٢٩٤ جىء إلى رومة من إپدورس Epidaurus
بإسكلاپيوس Aesculapius إله الطب عند اليونان في صورة أفعوان
ضخم (١١) ، وشيد على جزيرة في نهر التيبر معبد في صورة مستشفى تكريماً
له وجىء بكرونس Cronus اليونانى وقيل إنه لا يختلف في شيء عن زحل ،
ومزج پوسيدن Poseidon بنبتون Neptune وأرتميس Artemis بديانا
Diana وهفستس Hephæstus بفلكان Vulcan ، وهرقل Heracles
بهرقول Hercules ، وهيدس Hades بپاوتون Pluto وهرمس Hermes
بعطارد Mercury ، وارتفع چوبتر بفضل الشعراء إلى زيوس خير زيوس
اليونان ، فصار شاهد الأيمان الصارم وحارسها ، وقاضى الأخلاق الملتحى ،
والقيم على القوانين ، وإله الآلهة ؛ وهيئت عقول الرومان المتعلمين على مهل
لقبول عقائد التوحيد الرواقية واليهودية والمسيحية .

٣ - الكهنة

واستخدمت إيطاليا نظاماً من الكهنوت محكم الوضع لتضمن به
معوثة هؤلاء الأرباب . وكان الأب في منزله كاهناً ، ولكن الصلوات العامة
كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة ، تملأ كل منها ما يخلو في
صفوفها من الأماكن ويرأسها كلها جبر أعظم Pontifex maximus تختاره
الجمعية المثوية . ولم تكن عضوية هذه الكليات المقدسة تحتاج إلى تدريب

خاص ؛ بل كان في وسع كل مواطن أن ينضم إليها أو يخرج منها ؛ ولم تكن
تؤلف مرتبة أو طبقة منفصلة عن سائر المراتب أو الطبقات ، ولم يكن
لها أى سلطان سياسى عدا أن الدولة كانت تستخدمها أداة من أدواتها .
وكانت تستولى على إيراد بعض أراضي الدولة لتستعين به على العيش ، وكان
لها عبيد يقومون على خدمتها ؛ وقد أصبحت بتوال الأجيال عظمة الثراء
بما كان يحبسها عليها أتقياء الناس من الأموال .

وكانت الكلية الدينية الكبرى في القرن الثالث قبل المسيح تضم تسعة
من الأعضاء ، وكان هؤلاء الأعضاء يحتفظون بالحوليات التاريخية ،
ويسجلون القوانين ، ويقرعون الغيب ، ويقربون القرابين ، ويظهرون
رومة مرة في كل خمس سنوات . وكان يساعد هؤلاء الأحرار في القيام
بالإرسم الرسمية خمسة عشر كاهناً آخر يسمون فلميني *flamine* - أى موقدى
نيران الأضاحى . وكان ثمة طوائف من الأحرار أقل من هؤلاء شأناً
يؤدون واجبات خاصة : فالساليون *Salii* أو القافزون كانوا يستقبلون العام
الجديد بنوع من الرقص المقدس للمريخ ، والفتيالى *fetiales* يصدقون
على عقد الصلح ، وإعلان الحرب ، واللويرسى *Luperci* أو إخوان
الذئب يقومون بطقوس لوبركاليا *Lupercalia* العجيبة . وكانت طائفة
العدارى القسئية *Vestal Virgins* تعنى بموقد الدولة وترشه في كل يوم
بالماء المقدس تأخذه من عين الحورية المقدسة إيجيريا *Egeria* ؛ وكان هؤلاء
الراهبات ذوات الثياب البيض والخمير البيض يُخترن من بين الفتيات اللاتي
تراوح سنهن بين السادسة والعاشرة ، وكن يقسمن بأن يظلمن عدارى في
خدمة الإلهة فستا ثلاثين سنة ، وينان في نظير هذا ضرورياً من الامتيازات
والتكريم وإذا اقترفت إحداهن جريمة العلاقات الجنسية ضربت بالعصى
ودفنت وهى على قيد الحياة ، وقد سجل المؤرخون الرومان اثنتى عشرة
جريمة من هذا النوع ، فإذا قضين الثلاثين عاماً كان لهن أن يتركن خدمة
الإلهة ويتزوجن ، ولكن قل منهن من كانت تتاح لها هذه الفرصة أو تغتتمها
إذا أتاحت لها (١٢) .

وكانت أعظم طوائف الكهنة نفوذاً طائفة العرافين التسعة الذين كانوا يدرسون إدارة الآلهة ومقصدهم باتجاه الطيور في الأيام الأولى (*) ، وبالفحص عن أحشاء الحيوانات المضحاة فيما بعد ، فكان كبار الحكام « يستطلعون الطلع » قبل كل عمل هام من أعمال السياسة أو الحكم أو الحرب ، ثم يفسر العرافون ما يجده الحكام ، أو يفسره لهم مفتشو الأكباد *hauruspices* الذين تلقوا عنهم هذا من بلاد الكلدان أو من أمم قباهم عن طريق إتروريا . ولم يكن الكهنة على الدوام بمنجاة من الإغراء بالمال ، ولذلك كانوا في بعض الأحيان يوفقون بين أقوالها وبين حاجات من يذهب لاستشارتهم . من ذلك أن أي قانون لا يتفق مع مصلحة طائفة أو جماعة من الناس كان يمكن تعطيله إذا قيل إن اليوم الذي ينظر فيه القانون يوم مشئوم لا يصلح العمل فيه ، وكان في الاستطاعة إقناع الجمعية بالموافقة على إعلان الحرب إذا قيل لها إن اليوم الذي يطلب إليها إعلانها فيه يوم سعيد (١٣) . وكانت الحكومة في الأزمان الخطيرة تدعى أنها تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع إلى الكتب السبيلية *Sibylline* ، وهي الكتب التي سجلت فيها نبوءات سيبييل *Sibyl* أو كاهنة أبولون *Apollo* في كومية *Cumae* . وكان في وسع الأعيان أن يؤثروا في الشعب بهذه الوسائل وبالرسل الذين كانوا يرسلونهم إلى هاتف دلفي *The oracle at Delphi* في بعض الأحيان وبذلك يوجهونهم في أي اتجاه يشاءون ، ويكادون يبلغون كل غاية يرغبونها (١٤) .

ولم يكن يقصد بطقوس العبادات إلا أن تقدم هدية أو ضحية للآلهة لكسب عونها أو اتقاء غضبها . وكان الكهنة يقولون إن الاحتفالات التي تقام لهذا الغرض لا تثمر ثمرتها إلا إذا روعي فيها منتهى الدقة في الأقوال والحركات ، وهي

(*) ومن ثم اشتقت من هذا اللفظ *Augurs* ومعناها حامل الطيور *aves-gero* ، و *Auspices* فحص الطيور *aves-specio* . ولعل الإنسان البدائي قد عرف كيف يتنبأ بأحوال الجو من حركات الطير .

دقة لا يستطيع غير الكهنة أن يشرفوا عليها . وإذا وقع خطأ في طقس من هذه الطقوس أياً كان نوعه وجبت إعادته من جديد ولو تطلب ذلك إعادته ثلاثين مرة . وكان معنى لفظ Religio هو أداء الطقس الديني بالعناية التي يحتمها الدين (١٥) . وكان أهم ما في الاحتفال هو التضحية Sacrifice ؛ ومعنى اللفظ مشتق من كلمة Cacer اللاتينية ومعناها ملك للإله . وكانت التضحية في البيت تتخذ عادة شكل قطعة من كعكة توضع على الموقد أو كمية من النبيذ تلقى في نار البيت ، وتكون في القرية أول ثمرة تخرجها الأرض ، وقد تكون كبشاً أو كلباً أو خنزيراً ، وتكون في المناسبات الهامة فرساً أو خنزيراً أو شاة أو ثوراً ، وكانت الثلاثة الحيوانات الأخيرة تذبح جميعها في أكبر المناسبات أهمية في عيد السو أو في طوريليه Su - ove - taur - illa (أى عيد الخنزير والشاة والثور) . وكانوا يعتقدون أنه إذا تليت صيغ خاصة على التضحية استحال إلى الإله الذي يراد منه أن يتقبلها ؛ وعلى هذا الاعتبار كان الإله نفسه هو الذي يضحى به (١٦) ؛ وإن كانت أحشاء الحيوان وحدها هي التي تحرق على المذبح ؛ وكان الكهنة والناس يأكلون كل ما بقي منه ، فقد كان هؤلاء يأملون أن تلتقل قوته ومجده إلى عبيده المختلفين بعينه . وكان يضحى بالآدميين في بعض الأحيان ، ومما يجدر ذكره أنه كان لا بد من صدور قانون في عام ٩٧ بعد الميلاد لتحريم هذه العادة . ثم حورت هذه الكفارة تحويراً يبيح للرجل أن يضحى بحياته للدولة كما فعل القنصل بليوس ديسيوس Publius Decius وولده ، وكما فعل ماركس كورتوس Marcus Curtius إذ ألقى بنفسه في أخذود شقه زلزال في السوق العامة ليسكن بذلك غضب القوى الأرضية الخفية ، وتقول القصة بعد ذلك إن الشق قد التئم وإن الأمور قد عادت إلى مجاريها (٧١) .

وكان احتفال التطهير أكثر من هذه الطقوس متعة ؛ وكان هذا التطهير يحدث للمحصولات الزراعية أو لقطعان الماشية أو للجيش أو المدينة . وكانت

الطريقة المتبعة في هذا الاحتفال أن يطوف موكب بالشئ المراد تطهيره ، ويقدم له الصلوات والذبائح ، فيتطهر بذلك من المؤثرات السيئة ويرد عنه الشر . ولم تكن الصلوات قد خلصت كل الخلاص من الرقى السحرية ؛ وكان اللفظ الذي يطلق عليها وهو كارمن *Carmen* يعنى الأنشودة والرقية جميعاً ؛ ويعترف پانى صراحة بأن الصلاة ضرب من الأقوال السحرية (١٨) .

وإذا ما تليت الصيغة حسب الأصول المرعية ووجهت إلى الإله الذي يجب أن توجه إليه حسب سجل الآلهة *indigitamenta* الذي جمعه الكهنة واحتفظوا به ، فإن الرجاء لا بد أن يجاب ؛ فإن لم يجب فإن غلطة ما قد حدثت في الطقوس المرعية ، وقريب من السحر وذو صلة به الفتوتا *vota* أو النذور التي كان الناس يطلبون بها معونة الآلهة ، وكانت هياكل عظيمة تشاد في بعض الأحيان وفاء بهذه النذور ، وتوحى النذور الكثيرة التي كشفت بين مخلفات الرومان على أن الدين كان يملأ قلوبهم ، وعلى أنه كان يمزج به ويلطفه تقي وشكر على النعم ، وشعور بالصلة القوية بين الناس وبين قوى الطبيعة الخفية ، ورغبة أكيدة في أن يكون الناس على وفاق مع هذه القوى جميعها . هذا ما كان للدين من أثر في قلوب الشعب ، أما دين الدولة فكان على النقيض من هذا ، كان شكلياً جامداً ، لا يعدو أن يكون نوعاً من العلاقة التانونية التعاقدية بين الحكومة والآلهة . ولما أن تسربت إلى البلاد أديان جديدة من الشرق المغلوب ، كان أول ما تضعضع في الدولة الرومانية هو الدين الرسمي ، أما الإيمان العميق ذو المظاهر الجميلة الجذابة ، والطقوس المنتشرة في الريف ، فقد ظلت تقاوم الأغلال في صبر وعناد طويلين . ولما تغلب الدين المسيحي في آخر الأمر استسلم بعض الاستسلام إلى هذا الإيمان الربني القديم فأخذ عنه كثيراً من عقائده وطقوسه ، وكان ذلك الأخذ عن حكمة وأصالة رأى ، ولا تزال هذه الطقوس باقية في العالم المسيحي إلى هذه الأيام ، وإن تشكلت بأشكال جديدة وعبر عنها بألفاظ غير الألفاظ القديمة .

٣ - الأعياد

إذا كانت العبادات الرسمية مكتتبة صارمة فإن ما كان فيها من أعياد قد عوضها عن هذه الصرامة وصور الناس والآلهة في صورة أبهى وأجمل منظرًا . فقد كانت السنة تزدان بأكثر من مائة يوم مقدس (feriae) من بينها اليوم الأول من كل شهر ، وقد تشمل أحياناً اليومين التاسع والخامس عشر . وخصصت بعض هذه الأعياد لتقديس الموتى وأرواح العالم السفلى ؛ وكان يقصد بالأعياد وما يقام فيها من احتفالات استرضاء الموتى وإقضاء غضبهم ، فكانت الأسر الرومانية تحتفل في الأيام ما بين ١١ ، ١٣ من شهر مايو احتفالاً رهيباً بعيد الأرواح الميتة Lemures ، فكان الأب في هذا العيد يبصق من فمه فولاً أسود وهو ينادى : « بهذا الفول أنجى نفسي وأبنائي . . . إذهبي يا أطياف أسلافي ! » (١٩) ولم تكن أعياد البارنتاليا parentalia والفرااليا Feralia التي تقام في شهر فبراير إلا محاولات أخرى من هذا النوع لاسترضاء الأموات الخيفين ؛ لكن معظم الأعياد كانت مناسبات للمرح وملء البطون ؛ وكثيراً ما كان العامة يتخذونها فرصاً للإباحية الجنسية ، وشاهد ذلك ما يقوله أحد الأشخاص في مسرحية هزلية لپاوتس : « في وسعك أن تأكل ما تشاء ، وتذهب حيث تشاء ، وتحب من تشاء ، وعلى شريطة أن تمتنع عن الاتصال بالأرواح والأرامل والعذارى ، والغلمان الأحرار (٢٠) » ويلوح أنه كان يحس بأن ثمة بعد هذا مجالاً واسعاً للاختيار .

وكانوا يحتفلون في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير بعيد عجيب هو عيد لوپركاليا المخصص للإله فونس Faunus الحامي من الذئب Iupercus ، وكان يضحى في هذا العيد بالمعز والضأن ، وكان اللوبرسي Iuperci - وهم كهنته لا يلبسون على أجسادهم إلا مناطق من جلد المعز - يهرولون حول الهلاتين

Palatine يدعون الإله فوننا أن يبعد عنهم الأرواح الشريرة ، ويضربون وهم يهرولون من يلقون من النساء بسياط من جلود الحيوانات المضحي بها ليظهر ونهن ويزيدوا في قدرتهن على إنجاب الأبناء ، ثم يلقون بعد هذا دمي من القش في نهر التيبر لاسترضاء إله النهر أو نختله ، ولعل هذا الإله في الأيام التي كانت أكثر من ذلك الوقت همجية كان يتطلب أن تلقى فيه ضحايا بشرية . وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس كان الفقراء يخرجون من أكواخهم ، ويفعلون ما كان يفعله اليهود في عيد المظلات ، فيقيمون لهم خياماً في حقل المريخ ، ويحتفلون بالسنة الجارية ، ويدعون الإلهة أنا پرنا Anna Perenna (حلقة السنين) أن تهبهم سنين بعدد ما يحتسون من أكواب الخمر (٢١) . وكان في شهر أبريل وحده ستة أعياد آخرها كلها عيد فلوراليا Floralia . وكان هذا العيد وهو عيد فلورا Flora إلهة الأزهار والينابيع يدوم ستة أيام كلها مرح وسكر وعريضة . وفي اليوم الأول من شهر مايو كان يحتفل بعيد الآلهة الصالحة Bone Dea ، وفي التاسع والحادي عشر والثالث عشر من هذا الشهر يحتفل بالبراليا Liberalia عيد ليبر Liber وليبرا Libera إله العنب وإلهته ؛ وكان جماعات من الرجال والنساء في ذلك اليوم يمجدون جهرة عضو التذكير في الرجال وهو رمز الإنخصاب (٢٢) . وفي آخر شهر مايو كان الإخوان الأرقال Arval يقودون الناس في مواكب عيد الأمير فاليا Ambarvalia وهو عيد رهيب وإن لم يكن يخلو من المرح . ثم تهمل الأرباب فلا تقام لها أعياد في أشهر الخريف بعد أن تكون المحصولات قد أدخلت في المخازن ، حتى يقبل شهر ديسمبر فيزدحم بالأعياد مرة أخرى . فكان عيد السترناليا Saturnalia يدوم من اليوم السابع عشر إلى اليوم الثالث والعشرين من ذلك الشهر ، وكانوا يحتفلون فيه ببذر بذور العام المقبل ويحيون ذكرى حكم زحل Saturn الذي لم يكن الناس ينقسمون فيه طبقات ، والذي يتبادلون فيه الهدايا ، ويتحررون من كثير من القيود ، ويأخى فيه أو يعكس إلى حين ما بين

الأحرار والعبيد من فروق ، فكان في مقدور العبيد أن يجلسوا بجوار ساداتهم ، ويصدروا إليهم الأوامر ، ويتكلموا عليهم ، وكان السادة يقفون على المواثد لخدمة العبيد ، ولا يأكلون حتى تمتلئ بطونهم بالطعام (٢٤) .

وكانت هذه الأعياد زراعية النشأة ولكنها مع ذلك ظلت منتشرة بين أهل المدن ، وبقيت رغم ما طرأ على العقائد من تقلبات حتى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد . وقد بلغت من الكثرة والاضطراب حداً جعل من أول واجبات التقويم الروماني إحصاءها وترتيبها لإرشاد الشعب . وكان من عادة الإيطاليين في عهدهم الأول أن يدعوا الكاهن الأكبر المواطنين في أول يوم من كل شهر ويذكر لهم ما فيه من الأعياد التي يجب عليهم أن يحتفلوا بها في الثلاثين يوماً ؛ وقد اشتق من هذه الدعوة (Calatis) اسم **Calendae** الذي سمي به اليوم الأول من كل شهر . وكان معنى التقويم عند الرومان - وهو معنى لا يزال يحتفظ به إلى حد ما عند الكاثوليك المسيحيين وعند اليهود المتدينين - ثبناً كهنوتياً لأيام الأعياد وأعمال العمل ، يتخلله قليل من المعلومات المقدسة القانونية ، والتاريخية والفلكية . وتقول الروايات المأثورة إن نوما **Numa** ثاني ملوك رومة هو واضع للتقويم الذي ظل يضبط التواريخ والحياة الرومانية إلى أيام يوليوس قيصر . وكانت السنة حسب هذا التقويم تنقسم إلى اثني عشر شهراً قرياً ، تضاف إليها عدة أيام وأجزاء من أيام بنظام معقد يجعل متوسط مجموعها ٣٦٦ يوماً . ثم خول للأخبار في عام ١٩١ م أن يعالجوا الأخطاء المتزايدة بإعادة النظر في هذه الإضافات ، ولكنهم استخدموا السلطة التي منحت لهم لإطالة حكم من يرضون عنه من الحكام ، وتقصير حكم من لا يرضون عنه منهم ، ومن أجل هذا فإنه لم يكف ينتهي عهد الجمهورية حتى كان التقويم ، وقد تجمع فيه من الأخطاء ما يبلغ ثلاثة أشهر ، مثلاً للفوضى ووسيلة إلى التلاعب والخداع . أما ساعات النهار فكانت في الأيام الأولى لا تقدر بغير ارتفاع الشمس في

السما ، وظل هذا هو النظام المتبع حتى جىء فى عام ٢٦٣ ق . م بمزولة شمسية من قطانا Catana فى صقلية ووضعتم فى السوق العامة . ولكن هذه المزولة لم تكن تبين الوقت على حقيقته لأن قطانا كانت على بعد أربع درجات جنوبى رومة ؛ وقد ظل الكهنة مائة عام عاجزين عن أن يضبطوا هذه المزولة حتى تبين الوقت الحقيقى فى عاصمة البلاد . وفى عام ١٥٨ أقام سيبو ناسيكا Scipio Nasica ساعة شمسية عامة ؛ وكان الشهر يقسم إلى ثلاث فترات يفصلها بعضها عن بعض لليوم الأول ، واليوم الخامس أو السابع واليوم الثالث عشر أو الخامس عشر . ويسمى اليوم الأول الكالند Kalend والخامس أو السابع النون none والثالث عشر أو الخامس عشر الأيد ide . وكانت الأيام تسمى بطريقة سميحة عجيبة أساسها البعد عن هذه الأيام المحددة لأقسام الشهر . مثال ذلك أن اليوم الثانى عشر من شهر مارس كان يسمى « اليوم الثالث قبل أيد مارس » . وكان « الأسبوع » عندهم يتكون من تسعة أيام أو نحوها وينتهى بيوم النندى nundinae أو اليوم التاسع ، وهو اليوم الذى يذهب فيه القرويون إلى أسواق المدن . وكانت السنة تبدأ بإبتداء فصل الربيع ، ويسمى الشهر الأول منها مارتىوس Martius باسم إله البذر ، ثم يليه أبريلس Aprilis أى شهر النبت ، ثم مايوس Maius أى شهر مايا Maia أو لعله شهر الوفرة ، ويونىوس Junius شهر يونيو Juno ، أو لعله شهر النجاح ، ثم كونكتاس Quinctilis ، فسكستلس Sextilis . فسبتمبر فأكتوبر فنوفمبر فديسمبر . وقد سميت بترتيبها العددى فى السنة ، ثم يليها يناير January ليانوس Janus وفبراير فبروا Februa أو الأشياء السحرية التى يطهر بها الإنسان . وكانت السنة نفسها تسمى أنس Annus أى الحلقة كأنهم يريدون أن يقولوا إنه لا توجد للزمن فى واقع الأمر بداية ولا نهاية .

٤ - الدين وأثره في الأخلاق

ترى هل أعان هذا الدين على تقويم الأخلاق ؟ لقد كان من بعض النواحي مبعث الفساد الخلقى . فادتمامه بالطقوس والمراسم يوحى بأن الآلهة لا تجزى الشخص لصلاحه بل لما يقدمه لها من الهدايا وما يتلوه من الصيغ ، وكانت الأدعية والصلوات يطلب بها على الدوام النفع المادى أو النصر الحربى . وكان ما يقام من الحفلات يمثل حياة الإنسان وتربة الأرض في صورة المسرحية ، ولكن هذه الاحتفالات كثرت وزاد عديدها كأن هذه الأعياد ، لا صلة الجزء بالكل وإخلاصه له ، هى أساس الدين وجوهره ، وكانت الآلهة ، عدا قلة صغيرة منها ، أرواحاً رهيبة مجردة من النبل والأخلاق الفاضلة .

ولكن الدين القديم مع هذا كله كان يدعو إلى فضائل الأخلاق ، وإلى النظام والقوة فى الفرد والأسرة والدولة . وكان هذا الدين يصوغ أخلاق الطفل ، قبل أن يتسرب إليه الشك ، ويعوده التأديب وأداء الواجب ولطف المعاشرة . كذلك كان يجعل للأسرة حقوقاً وضمائم ومعونة مقدسة : فكان يغرس فى قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى ، ويجعل للمولد والوفاة كرامة ومعنى قدسيًا خاصًا ، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج ويشجع على التناسل إذ يجعل الأبوة شرطاً أساسياً لطمأنينة روح الميت وتمتعها بالهدوء والسلام . يضاف إلى هذا أن الدين ، بما كان يفرضه من المراسم والحفلات قبل كل حملة ومعركة حربية ، يرفع قوى الجندى المعنوية ويحمّله على الاعتقاد بأن القوى الروحية تحارب إلى جانبه ، وأنه كان يثبت القانون ويزيده قوة بما يعزو إليه من أصل سماوى وصورة دينية ، ويقول إن الجرائم تخل بنظام السماوات وبسلمها

وبوضع سلطان چوڦ وراء كل قسّم . وكان الدين يخلع على كل ناحية من نواحي الحياة العامة جلالاً دينياً ، ويمتّم أن يسبق كل عمل من أعمال الحكومة طقوس وصلوات ، ويربط الدولة والآلة برباط متين ، وحد بين التقوى والوطنية ، وسما بحب الوطن فجعله عاطفة أقوى مما كان في أي مجتمع آخر يعرفه التاريخ . وبهذا كله كان الدين يشترك مع الأسرة في شرف تكوين ذلك الخلق الحديدي الذي كان هو السر في سيادة رومة على العالم ، وفي تحمل تبعه هذا التكوين :

الفصل الثالث

الأخلاق

ترى أى مبادئ خلقية نشأت من هذه الحياة التى كانت تحياها الأسرة الرومانية بين هذه الأرباب المختلفة ؟ لقد كانت الآداب الرومانية من أيام عهد إنىوس Ennius إلى عهد جوفنال Juvenal تجعل تلك الأجيال القديمة مثلاً أعلى وتندم على الأيام الحالية أيام البساطة والفضيلة القديمتين . وستوحى إلينا صحف هذا الكتاب أيضاً بما كان هناك من فوارق بين رومة فييوس الرواقية ورمة نيرون الأبيقورية ، ولكن علينا ألا نغالى فى هذه الفوارق بتحيزنا فى اختيار الشواهد التى ندلل بها على وجودها ؛ ذلك لأنه كان فى عهد فييوس أبيقوريون كما كان فى عهد نيرون رواقيون .

ولقد ظلت الأخلاق الجنسية عند الرجل العادى واحدة لم يطرا عليها تغيير من بداية التاريخ الرومانى إلى نهايته : ظلت خشنة طليقة ولكنها لا تتعارض مع الحياة الناجحة فى ظل الأسرة ، وكان يطلب إلى الفتيات فى جميع الطبقات الحرة أن يحافظن على بكرتهن ، وما أكثر القصص الملقوية التى كانت تروى لرفع شأنها ؛ ذلك أن الرومانى كان قوى الإحساس بحق الملكية ، شديد التمسك به ، ولهذا كان يتطلب زوجة قوية الأخلاق غير متقلبة الأهواء تضمن له أنه لن يرث متاعه بعد موته أبناء من غير صلبه . ولكن الرجال فى رومة لم يكونوا يلامون كثيراً على عدم العفة قبل الزواج إذا أظهروا الاحترام الواجب لرياء بنى الإنسان ونفاقهم ، شأنهم فى هذا شأن الرجال فى بلاد اليونان . ولنا لنجد فى أقوال كتابهم وخطباتهم من عهد كاتو الأكبر إلى شيشرون عبارات صريحة يبررون

بها هذا النوع من الدنس (٢٥) ؛ وليس الذي يزيد بتقدم المدنية هو فساد الطبع وإنما الذي يزيد هو الفرص التي تتاح لإظهار هذا الفساد والتعبير عنه . ولم تكن العاهرات كثيرات في رومة في أيامها الأولى ، وكان يحرم عليهن لبس مئزر الأمهات وهو شعار الزوجة المحترمة ، وكن محصورات في الأركان المظلمة من رومة ومن المجتمع الروماني . ولم تكن قد نشأت فيها وقتئذ طائفة المحظيات المتعلمات الشبهات بطائفة المطربات في أثينة ، كما لم يكن قد نشأ فيها بعد أولئك المومسات الرقيقات اللاتي تغنيهن أو قد Ovid في شعره .

وكان الرجال يتزوجون في سن مبكرة قبل السنة العشرين من عمرهم في العادة ، ولم يكن الباعث على الزواج هو الحب الرواى ، بل كان هو الرغبة الصادقة السليمة في أزواج يعاونهم في عملهم ، وأبناء ذوى فائدة لهم ، وأن يستمتعوا بحياة جنسية سليمة . وكان يقال في حفلة الزفاف إن الغرض من الزواج هو إنجاب الأطفال . وكان للأطفال في المزرعة كما كان للنساء فائدة اقتصادية كبرى ولم يكونوا كما هم اليوم لعباً حياً . وكان الآباء هم الذين يتزوجون أبناءهم وبناتهم ، وكانت عقود الزواج تعقد أحياناً على الأبناء في طفولتهم ، وكان رضا أبوى الزوج والزوجة ضرورياً لإتمام عقد الزواج . وكانت تصحب الخطبة مراسم وتقاليد معينة ، تعد رابطة قانونية بين الزوجين . وكان أقرباء الزوجين . يجتمعون في وليمة ليشهدوا عقد الزواج ، وكانت قشه stipula تكسر بين أهل العروسين علامة على اتفاقهما . وكانت شروط الزواج وبخاصة ما يتصل منها بالمهر تسجل كتابة ، وكان الزوج يضع خاتماً من الحديد في الإصبع الرابعة من أصابع اليد اليسرى للزوجة لاعتقادهم أن عصباً يسير من تلك الإصبع إلى القلب (٢٦) . وكانت أصغر سن يباح فيها الزواج هى الثانية عشرة للفتاة والرابعة عشرة للفتى ، وكان القانون الروماني القديم يجعل الزواج إجبارياً (٢٧) ، ولكن اعتقادنا أن هذا

القانون قد أغفل ولم يكن يطبق قبل عام ٤١٣ ق م حين فرض الرقيب،
كلمس Camillus ضريبة على العزاب .

وكان الزواج نوعين زواجا كم مانو Cum manu وزواجا سن مانو
sin manu أى زواجا يتبعه وضع العروس وما تملك تحت سلطان زوجها
أو والده وزواجا لا يتبعه هذا الوضع . وكان زواج السن مانو (من غير
تسليم) فى غير حاجة إلى حفلة دينية ، ولا يتطلب أكثر من رضاء العروس
والعريس . أما زواج وضع اليد فكان يتم إما بالمعاشرة مدة عام (usus)
وإما بالشراء (Coemptio) . وكان هناك نوع ثالث يعرف بالزواج بطريق
الكنفرياشيو (Confarreatio) والمعنى الحرفى لهذا اللفظ هو (أكل كعكة
معا) : وكان هذا النوع الأخير يتطلب حفلا دينياً ، ولا يتم إلا بين
الأشراف . وقد اختفى الزواج بالشراء الفعلى فى عهد مبكر ، أو أنه انعكس
فكانت الزوجة فى واقع الأمر كثيراً ما تشتري الزوج ببائنتها . وكانت هذه
البائنة توضع عادة تحت تصرف الزوج ، ولكن قيمتها ترد إلى الزوجة إذا
طلقت أو مات زوجها . وكان يصحب العرس كثير من الحفلات والأغاني
الشعبية ، وكانت أسرتا العروسين تطعمان فى بيت العروس ، ثم يسير أفرادهما
فى موكب مرخ بهيج إلى بيت والد العريس على أنغام المزامير والأناشيد
والمزاح الماجن . فإذا وصلوا إلى باب المتوج بالأزهار تقدم العريس إلى العروس
وسألها : « من أنت ؟ » فأجابته بعبارة بسيطة تشعر بوفائها ومساواتها
وانضمامها له وهى قولها « حيث تكون كيوس Caius أكون أنا كايا
Caia » ثم يرفعها فوق عتبة بيته ، ويقدم لها مفاتيحه ، ويضع عنقها وعنقه
تحت نير إشارة إلى الرابطة المشتركة بينه وبينها ؛ ومن ثم سمي الزواج
كنيوجيوم Coniugium أى الاشتراك فى النير . ثم تشترك العروس فى
الصلاة لآلهة البيت دلالة على أنها قد انضمت إلى الأسرة الجديدة .

وكان الطلاق عسيراً ونادراً فى الزيجات التى تعقد بالكنفرياشيو ، وفى زواج

الكم مانو كان الزواج وحده هو الذى يستطيع فصم عرى الزوجية ، أما فى زوج السن مانو فكان لكل من الزوجين حق الطلاق إذا أراد دون أن يتطلب هذا موافقة الدولة . وقد سجل أول طلاق فى تاريخ الرومان فى عام ٢٦٨ ق . م ؛ وتقول إحدى الروايات المشكوك فى صحتها « إنه لم يحدث قبل هذا طلاق قط منذ أسست مدينة رومة (٢٨) » . وكانت عادات العشائر الرومانية تتطلب من الزوج أن يطلق الزوجة الحائنة أو العقيم « . وفى هذا يقول كاتو الكبير « إذا وجدت زوجتك تزنى ، فإن القانون يبيح لك أن تقتلها من غير محاكمة ؛ وإذا ما فاجأتك مصادفة وأنت ترتكب هذه الجريمة نفسها فليس لها أن تمسك حتى بأطراف أصابعها ، لأن القانون يحرم عليها هذا (٢٩) » . ويلوح أنه كانت هناك زيجات سعيدة كثيرة على الرغم من هذا التفريق ؛ فشواهد القبور تنطق بالكثير من عبارات الحب والإخلاص التى كتبت عليها بعد وفاة الأزواج . وها هى ذى عبارة مؤثرة تعظم إحدى السيدات التى أخلصت فى خدمة زوجها :

« لقد كنت ياستاتليا Statilia بارعة الجمال إلى أبعد حد وفية لأزواجك ! ، ولو أن أول من جاء إليك قد استطاع أن يقاوم الأقدار لأقام إليك هذا الحجر ؛ أما أنا الذى نعمت بقلبك الطاهر هذه السنين الست عشرة فقد فقدتلك ، ألا ما أشد أسفى عليك » (٣٠) .

والراجح أن فتيات رومة فى عهدهما الأول لم يبلغن من الجمال ما بلغته أخواتهن فى عهدهما المتأخرة واللائى يصفهن كاتلس Catullus وصف الرجل الخبير بأنهن *laneam latusculum manusque mollicellas* أى أن لهن « جانبين نحيلين أملسين كالصوف ، ويدين صغيرتين ناعمتين » . أو لعل الفتيات فى العهدين لم يكن بينهما هذا الفرق ولكن الكدح والهلم فى الأيام الأولى أيام العمل فى الحقول كانا يطغيان بعد زمن يسير على جمال المراهقة . وقد اشتهرت نساء الرومان بتناسب معارفهن ، فكانت لهن أنوف صغيرة رفيعة ، وكن فى العادة

ذوات شعر أسود وعيون داكنة . وكان للشقراوات عندهن منزلة رفيعة ، وكذلك كان للصبغات الألمانية التي تكسب الفتيات هذا اللون قيمة كبيرة عند الرومانيات . أما الرجل الروماني فكان يتصف بالقوة والمهابة أكثر مما يتصف بالوسامة ، فقد قسا وجهه من أثر تربيته الصارمة والحياة العسكرية الطويلة ، ثم نعم واسترخى بعد انهماكه في الملاذ في الأيام الأخيرة . وما من شك في أن كليوباترة قد أحبت أنطونيوس لئيب آخر غير خديه المتفخين من احتساء الخمر ، وأحبت قبصر بسحر آخر غير سحر أنفه ورأسه الشبيهين برأس النسر وأنفه . لقد كان الأنف الروماني كالحلق الروماني حاداً منحرفاً ، وظل الرومان يلتحون ويطيلون شعر رؤوسهم حتى عام ٣٠٠ ق . م حين بدأ الحلاقون يمارسون مهنتهم في رومة . أما ملابسهم فكانت في جوهرها كملابس اليونان ، فكان الأولاد والبنات والحكام وكبار الكهنة يلبسون التوجا پراتكستا *Toga Praetexta* أي الجبة ذات الأهداب الأرجوانية . فإذا أتم الشاب السادسة عشرة من عمره استبدل بها التوجا فريلس *toga virilis* « جبة الرجولة » البيضاء دلالة على أنه قد أصبح من حقه أن يقترع في الجمعيات الوطنية ومن واجبه أن يخدم في الجيش . وكانت النساء في داخل البيوت يلبسن ثوباً (استولا *stola*) يربطنه بمنطقة تحت الثديين ، ويصل إلى القدمين ؛ فإذا خرجن من البيوت لبسن فوقه *Palla* أو عباءة . وكان الرجال وهم في البيوت يلبسون قميصاً بسيطاً *tunica* ، فإذا خرجوا منها أضافوا إليه جبة على الدوام وعباءة في بعض الأحيان . وكانت الجبة (*tegere* أي يغطي) رداء من الصوف تتكون من قطعة واحدة يبلغ عرضها ضعف عرض لابسها ، وطولها ثلاثة أضعاف طوله . وكانت تلف حول الجسم ويلقى ما زاد منها على الكتف اليسرى ، ثم تلف من تحت أبط اليد اليمنى ، وتعود مرة أخرى فتلقى فوق الكتف اليسرى . وتستخدم ثناياها التي فوق الصدر كما تستخدم نحن الجيوب ، وكانت ترك ذراع لابسها اليسرى حرة في حركتها .

وكان الرجل الروماني يصطنع المهابة الصارمة (gravitas) ويرأها نخلة ثقيلة لا يستغنى عنها الأشراف الذين يحكمون شعباً ، ثم شبه جزيرة ، ثم إمبراطورية . وكان ما يتصف به من رحمة وعاطفة رقيقة مقصوراً على الحياة المنزلية ؛ أما في الحياة العامة فقد كان على رجل الطبقة العليا أن يكون راسخاً جافاً كتمثاله ، وأن يخفي وراء قناع من الهدوء الصارم ما في طبعه من تهيج وفكاهة لا نراها واضحين ساخرين في مسرحيات بلوتوس الفكاهة فحسب بل نراها كذلك في خطب شيشرون . لقد كان يطلب إلى الروماني حتى في الوقت الذي نتحدث عنه أن يعيش عيشة اسبارطية ؛ فكان الرقيب يستهجن الرف في الملابس والمأكل ؛ بل إن الزارع إذا أهمل زراعته كان مريضاً لأن يفاجئه الرقيب ليحاسبه على هذا الإهمال . وليس أدل على تقشف الرومان من أن السفراء القرطاجنيين حين عادوا من رومة بعد الحرب البونية الأولى أخذوا يسلون أثرياء التجار في بلدكم بقولهم إنهم شاهدوا مجموعة يعينها من الصحف الفضية في كل بيت دعوا إليه ، أي أن مجموعة واحدة تنقل سراً من بيت إلى بيت كانت تكفي طبقة الأشراف جميعها ؛ وكان أعضاء مجلس الشيوخ في ذلك الوقت يجلسون على مقاعد خشبية صلبة في *Curia* لا يبدأ قط حتى في فصل الشتاء .

بيد أن الثروة والترف قد بدءا وسار سيراً حثيثاً بين الحربين البونيتين الأولى والثانية ؛ وشاهد ذلك أن هنيبال جمع من أصابع الرومان الذين قتلوا في معركة كانى عدداً كبيراً من الخواتم الذهبية (٣٢) ، وأن قوانين عدة قد وضعت لتحرم الجواهر المنقوشة ، والملابس المبهرجة ، والواجبات الغالية الثمن ، ولكن هذه القوانين رغم تكررها ظلت عديمة الجدوى . لقد ظلت وجبات الروماني العادي حتى القرن الثالث قبل الميلاد وجبات بسيطة ؛ فكان فطوره (ientaculum) يتكون من الخبز وعسل النحل أو الزيتون أو الجبن ؛ وكان غداؤه (prandium)

وعشاؤه Cena يتكونان من البقول والخضر والفاكهة . أما السمك واللحم فكان يختص بهما الأغنياء (٣٣) ، وقلما كانت مائدة ما تخلو من النبيذ الخفيف ، أما شرب النبيذ المركز فكان يعد إفراطاً . وكانت الأعياد وللولايم من المتع الضرورية في هذا العهد الرواقى ، وكان العاجزون عن التمتع بها يبقهم هذا العجز ويظهرون ما يحل بهم بسببه من إجهاد عصى في تمائيلهم التى خلفوها لمن جاءوا بعدهم .

ولم يكن للصدقات مجال في هذه الحياة المقتصدة المتقشفة . وقد بقيت الضيافة من العادات التى يتبادلها الرومان لتيسر عليهم أسفارهم طالما كانت النزل فقيرة ومتباعدة ، ولكن پولبيوس يقول : « إن أحداً في رومة لا يقدم شيئاً مالمالاً إنسان إذا كان ذلك الامتناع في مقدوره » (٣٤) - وما من شك أن في هذا كثيراً من المغالاة : وكان الصغار يشفقون عن الكبار ، ولكن الظرف والكياسة لم يصلا إلى رومة إلا في آخر أيام الجمهورية ، وقد غيرت الحروب والفتوح أخلاق الرومان فجعلتهم في الغالب غلاظاً قساة إلى حد بعيد ، لا يأنفون من أن يقتلوا دون أن يؤنبهم ضميرهم على القتل ، وأن يقتلوا دون أن يشكوا منه . وكان أسرى الحرب يباعون في الأسواق آلافاً مؤلفة ، عدا الملوك وقواد الجند فكانوا يقتلون عقب النصر أو يتركون ليموتوا موتاً بطيئاً من أثر الجوع . أما في دوائر الأعمال فكانت أخلاق الرومان خيراً من هذه الأخلاق . نعم إن الرومان كانوا يحبون المال ، ولكن پولبيوس (حوالى ١٦٧ ق . م) يصفهم بأنهم رجال مجدون شرفاء ، ويقول هذا المؤرخ اليونانى إن أحداً لا يستطيع أن يمنع اليونانى من الاختلاس مهما كان عدد الكتبة الذين يعيشون لمراقبته ، أما الرومان فكانوا يتصرفون في مبالغ طائلة من الأموال العامة ولم يثبت عليهم الاختلاس إلا في حالات جرد نادرة (٣٥) . على أننا رغم هذا القول نجد أن قانوناً قد صدر في عام

٤٣٢ ق . م لمنع الغش في الانتخابات . ويقول المؤرخون الرومان إن النزاهة السياسية قد بلغت أوجها في الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ، ولكنهم يشيرون الريبة بما يكيلونه من المدح لفالوريوس كورفوس **Valerius Corvus** بقولهم إنه شغل واحداً وعشرين منصباً من مناصب الحكام ، ثم عاد إلى حقوله فقيراً كما كان حين خرج منها ؛ ولكيوريس **Curius Dentatus** الذي لم يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم التي استولى عليها من الأعداء ؛ ولفابيوس **Fabius Pictor** ورفاقه الذين قدموا للدولة ما أعطى لهم في مصر من الهدايا الثمينة حين ذهبوا إليها في بعثة رسمية . وكان الأصدقاء يقرضون بعضهم بعضاً من غير فائدة ؛ وكثيراً ما كانت الحكومة الرومانية تلجأ إلى الغدر في معاملتها للدول الأجنبية ، ولعل الإمبراطورية كانت أشرف من الجمهورية في علاقاتها الخارجية . ولكن مجلس الشيوخ أبي أن يتغاضى عن تسميم **Pyrrhus** ، وحذره من المؤامرة التي كانت تدبر له (٣٦) . ولما أن أرسل هنيبال بعد معركة كاني عشرة أسرى إلى رومة ليفاوضوها في افتداء ثمانية آلاف أسير آخرين ووعده هؤلاء العشرة بالعودة إليه ، وفوا كلهم عدا واحداً منهم بما وعدوه به ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن ألقى القبض على هذا العاشر وصفده بالأغلال ، وأعادته إلى هنيبال ، ويقول پولبيوس إن سرور هنيبال لنصره « لم يبلغ من الشدة ما بلغه حزنه حين رأى ما يتصف به الرومان من ثبات وشهامة (٣٧) » . وقصارى القول أن الروماني العادي في ذلك العهد كان محباً للنظام ، محافظاً ، وفياً ، لا يفرط في الشراب ، وقوراً بنجيلاً ، قاسياً ، عملياً . وكان يعجب بالنظام ويسر منه ولا يستمع إلى ما يقال من الهراء عن الحرية ؛ وكان مطيعاً يرى أن الطاعة خير سبيل إلى اعتياد الأمر والنهي . وكان يسلم بلا جدال بأن من حق الحكومة أن تثبت من أخلاقه كما تثبت من إرادته ، وأن قدره عندها لا يوزن إلا بما يقدمه للدولة من خدمات ، وكان لا يؤمن بالفردية ولا يثق بالعرقية . ولم يكن يتحلى بشيء من الجاذبية ؛

وخفة الروح وطلاقة اللسان التي يتصف بها يونانيو أتيكا Attica . وكان إعجابه بالأخلاق الفاضلة والإرادة القوية يماثل إعجاب اليونان بالحرية والذكاء . وكان النظام مصدر تفوقه على غيره . وكان يعوزه الخيال إلى حد عجز معه عن أن ينشئ له أساطير خاصة به . وكان يحمل ببعض الجهد على أن يحب الجمال ، ولكنه قلما استطاع أن يخاق هذا الجمال خلقا . وقلما كان يجد لديه فائدة للعلوم البحتة ، وكان يرتاب في الفلسفة ، ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق والأصاليب القديمة . ولم يكن في مقدوره بأية وسيلة كانت أن يفهم أفلاطون أو أركميدس أو المسيح ، وكل ما كان يستطيعه أن يحكم العالم :

الفصل الرابع

الآداب

لم تكن الأسرة والدين والقانون الأخلاق وحدها هي التي تكون أخلاق للروماني ، بل إن المدرسة واللغة والآداب كان لها هي الأخرى شأن في تكوين خلقه وإن يكن أقل من شأن العوامل الثلاثة الأولى . ويقول أفلو طرخس إن أول مدرسة رومانية أنشئت في عام ٢٥٠ ق . م (٢٨) ، ولكن ليثي يقول في وصف فرجينيا Virginia محبوبة أحد الحكام العشرة ، ولعل لخياله الخصب شأن في هذا الوصف ، إنها « كانت تذهب إلى مدرسة في السوق العامة » في تاريخ مبكر جداً وهو عام ٤٥٠ ق . م . وإن مطالبة الشعب بتدوين القوانين ، ونشر الألواح الاثني عشر ، ليوحى بأن كثرة المواطنين في رومة كانت في تلك الأيام تعرف القراءة والكتابة .

وكان المدرس في العادة من العبيد أو من العبيد المحررين تستخدمه عدة أسر لتعليم أبنائها ، أو ينشئ هو لنفسه مدرسة خاصة يقبل فيها من يتقدم إليه . ويعلم فيها القراءة والكتابة والنحو والحساب والتاريخ والطاعة . وكانت التربية الخلقية مادة أساسية فيها تعلم على الدوام ، وكان يعنى بالنظام والتأديب أعظم عناية . وكان في حفظ الألواح الاثني عشر عن ظهر قلب تدريب للذاكرة وتقويم للأخلاق جميعاً . ومن أقوال هين Helne في وصف الصعود التي يلقاها من يريد تعلم اللغة اللاتينية إنه « لو اضطر الرومان لتعلم اللغة اللاتينية لما وجدوا لديهم من الوقت ما يسمح لهم بفتح العالم (٤٠) » . ولكن الرومان أيضاً قد اضطروا إلى دراسة تصريف الأفعال اللاتينية الشاذة ، ولم يلبثوا أن اضطروا إلى دراسة اللغة اليونانية ،

وكان الطالب اليوناني يدرس سير أبطال الرومان وما قامت به بلاده من جلائل الأعمال بدراسة آثار كتابها وشعرائها ، وكان يتلقى دروساً في للوطنية بدراسة حوادث لم تحدث قط ؛ ولم يكن الرومان يعنون بالألعاب الرياضية لأنهم كانوا يفضلون أن يقروا أجسامهم ويتعودوا تحمل المشاق بالقيام بالأعمال المجهدة النافعة ، الحقول والمعسكرات ، لا بالمباريات في المجتلدات والملاعب الرياضية .

وكانت اللغة - كما كان الشعب - اقتصادية عملية محددة المعاني ، مختصرة ، جملها الأصلية والتبعية منظمة تنظيماً يوصل إلى هدف محدد . وثمة آلاف من الروابط بينها وبين اللغتين السنسكريتية واليونانية واللغات الكلتية التي كان ينطق بها الغاليون الأقدمون وسكان ويلز وأيرلندا ؛ وهذه اللغات كلها من أسرة اللغات الهندوربية ؛ وكانت اللغة اللاتينية أضيق من اللغة اليونانية نحياً ، وأقل منها مرونة واستعداداً لتكوين الكلمات المركبة ؛ وكان لكريشيوس وشيشرون يشكوان من قلة مفرداتها ، ومن عجزها عن بيان الفروق الدقيقة في المعنى الواحد . لكنها مع ذلك كانت ذات نغمة طنانة فخمة وقوة أضحت بفضلها من أصلح اللغات للخطابة ؛ كما أن أسلوبها الجزل الموجز ، وعبارتها المنطقية ، قد جعلها صالحة لتدوين القانون الروماني . وقد انتقلت الحروف الهجائية اللاتينية إلى رومة من جزيرة خلقيس العوبية *Euobeana Chalcis* (*) عن طريق كومية وإتروريا (٤) . ومن أجل هذا نرى الحروف اللاتينية كلها يونانية الشكل في أقدم نقش لاتيني معروف يعزى إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وكان حرف C في اللاتينية القديمة ينطق كافا مثل حرف K في الإنجليزية كما كان حرف V ، U ينطقان مثل U ، W ؛ أما الحروف الدالة على الحركات فكانت شبيهة بمثلها في اللغة الإيطالية الحديثة . وكان معاصرو قيصر ينطقون اسمه يوليوس قيصر *Yooleous Keyssar* كما كان اسم شيشرون *Cicero* ينطق به كيكرو *Keekero* .

(*) من مجموعة جزائر عوبية في شرق بلاد اليونان . (المترجم)

وكان الرومان يكتبون بالحبر ببراعة معدنية مشقوقة (calamus, stilus) على أوراق الأشجار في بادئ الأمر (folia) ، ومن ثم كانت الكلمتان الإنجليزيتان Leaf , folio ، ومعناهما صفتان) ؛ ثم كتبوا فيما بعد على باطن لحاء الشجر (liber) ؛ وكثيراً ما كانوا يكتبون على ألواح بيضاء من الخشب المطلي بالشمع (Album) ، وكتبوا بعد ذلك على الجلد المدبوغ ، وعلى الورق . وإذا كانت لغة الكتابة اللاتينية أشد مقاومة للتغير من لغة الكلام ، فإن لغة الأدب أخذت تختلف شيئاً فشيئاً عن اللغة التي كان يتكلمها الشعب ، كما يحدث الآن في أمريكا وفي فرنسا . ولذلك نشأت اللغات الرومانسية الرخيمة : الإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، والفرنسية ، ولغة رومانيا ، نشأت هذه اللغات من اللغة اللاتينية الخشنة غير المهذبة التي جاء بها إلى هذه الأقاليم الجنود والتجار ، والأفاقون المغامرون ، ولم تنشأ من اللغة التي جاء بها الشعراء والنحويون . ولهذا اشتقت الكلمات التي معناها حصان في اللغات الرومانسية - Caballo ، Cavallo ، Cheval - من اللفظ اللاتيني العامي Caballus لا من اللفظ الفصيح equis . وكان لفظ ille في اللغة اللاتينية العامية مكوناً من مقطع واحد كاللفظ il في اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وكان حرف S وحرف M يُحذفان أو لا ينطق بهما إذا كانا في آخر الكلمات كما هي الحال في هاتين اللغتين . وعلى هذا فقد جاءت خير اللغات من مسخ أسوأها : Corruptio pesimi optima .

ترى ما هو الأدب الذي كان يقرؤه الشاب الروماني في هذه الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ؟ لقد كان في وسعه أن يقرأ ترانيم وأغاني دينية كأغنية إخوان أرفال The Arval Brethren ، وكان لديه أيضاً قصائد شعبية تقص ماضي رومة التاريخي أو الأسطوري . وكان في ذلك العهد سجلات رسمية - معظمها مما كتبه الكهنة - للانتخابات ، والمناصب الكبرى ،

والحوادث الشهيرة ، وعلامات التشاؤم والتفاؤل ، وأيام الأعياد(*) .

وقد اعتمدك . فابيوس بيكتور Q. Fabius Pictor على هذه السجلات في كتابة تاريخ لرومة خليق بالاعتبار ، وإن كان قد كتبه باللغة اليونانية ؛ ذلك بأن اللغة اللاتينية لم تكن تعد في ذلك الوقت صالحة لأن يكتب بها النثر الأدبي ، ولم يكن يكتب بها المؤرخون حتى زمن كاتو .

لقد كان هناك خليط من النثر يسمى ساتورى Saturae ، وهو خليط من الكلام المطرب الأجوف والغزل الهزلي - صاغ منه لوسلس Lucillus فيما بعد صورة جديدة كتب بها هوراس Horaec وچوثنال Juvenal وكان لديهم مجون هزلي فاحش أو تقليد صامت يقوم به في العادة ممثلون من إتروريا .

وقد أطلق لفظ استريوني istiriones على بعض هؤلاء الممثلين القادمين من مدينة استريا Istria ومن هذا الاسم اشتق لفظ histrio (ممثل) اللاتيني ومشتقاته في اللغات الحديثة . كذلك كانت تمثل في أيام الأسواق والأعياد مسرحيات هزلية فجحة شبه مرتجلة ، أخذت عنها كثير من المسرحيات الهزلية الإيطالية القديمة والحديثة آلافاً من شخصياتها : كالأب الغني الأبله ، والشاب المتلاف صريع الحب ، والعذراء المفترى عليها ، والخادم الدساس الماهر ، والنهم الدائب السعى إلى وجبة ، والمهرج المرح الصخاب .

وفي ذلك العهد البعثد كان المهرج يتباهى برقع ثيابه الزاهية الألوان ، وبسراويله الطويلة المنتفخة ، وبصديرتة الواسعة الأكمام ، وبرأسه الخليق ، وهي الصورة التي لا تزال نذكرها من أيام شبابنا . ولقد وجدت على مظلمات خرائب عبي صورة لا تفرق في شيء عن صورة « القركوز » المعروفة .

وكان أول دخول الأدب في رومة على يد عبد يوناني في عام ٢٧٢ ق . م .

(*) annal, esmaximi, libri magistratum, fasti consulares fasti calendares

ففي ذلك العام سقطت تارنتم في يد الرومان وذبح كثير من أهلها اليونان ،
ولكن ليفيوس أندريليكوس *Levius Andrenicus* أسعده الحظ بأن نجا
من القتل وصار في عداد العبيد ، ثم جرى به إلى رومة فأخذ يعلم أبناء سيده
وغيرهم من الأطفال اللغتين اللاتينية واليونانية ، وترجم لهم الأوديسة بالشعر
اللاتيني الساتورنى *Saturnian* وهو عبارة عن أبيات ذات أوزان مفككة
غير منتظمة تقاس أوتادها بالنبرات لا بالطول . ثم تحرر من الأسر جزاء
له على جهوده وعهد إليه إيديل بكتابة مأساة ومسلاة تمثلان في ألعاب
(*ludi*) سنة ٢٤٠ ق . م . فكتب المسرحيتين على النمط اليونانى ، وأرشد
ممثلهما ، ومثل هو الأجزاء الهامة فيهما ، وغنى ما فيهما من الأناشيد على
نعمة مزمار حتى يبحّ صوته .

ثم جاء بشخص آخر يغنى الأبيات وهو يمثل - وهى طريقة اتبعت في
مسرحيات كثيرة بعدهما مثلت في رومة ، وكان لها أثر كبير في نشأة
المسرحية الصامتة المضحكة ، وسرت الحكومة أيما سرور من دخول
المسرحية الأدبية في رومة فكرمت أندرمكس ، بأن أباحت للشعراء أن
يؤلفوا اتحاداً لهم ، وأن يعقدوا اجتماعاتهم في هيكل مينرفا على الأفتنين
ومن ذلك الحين جرت العادة بتمثيل مسرحيات ذات مناظر في الأعياد
العامة (٤٣) .

وبعد خمس سنين من هذه البداية التاريخية جاء جندى قديم من عامة
الشعب ومن أهل كمبرانيا يدعى كنيس نيقيوس *Cnaeus Naevius* فأثار
غضب الأهلين المحافظين على تقاليدهم القديمة بتمثيل مسلاة سخر فيها من
المفاسد السياسية التي كانت متفشية في العاصمة في أيامه ، سخرية لا تقل
في صراحتها عن سخرية أرسطوفان *Aristophanes* .

وشككت الأسر الكبيرة من هذه السخرية فزج نيقيوس في السجن ثم
اعتذر عن عمله هذا وأطلق سراحه ، ولكنه عاد فألف مسرحية أخرى لا تقل
في سخريتها لللاذعة عن مسرحيته الأولى ، أخرج على أثرها من رومة ، وكتب

في منفاه وهو شيخ طاعن في السن ملحمة شعرية في الحرب الپونية الثانية التي خاض هو نفسه غمارها ، تفيض وطنية وحماسة . وتبدأ هذه الملحمة بذكر تأسيس رومة على أيدي اللاجئين الطرواديين ، وقد استمد منها فرجيل موضوع ملحمته وكثيراً من مناظرها .

وخلیق بنا أن نقول إن الحكم الذي صادر بنفيه كان مأساة مزدوجة ؛ ذلك أن الملهاة الرومانية قد فتت في عضدها عنق الرقابة التي كانت تعد السب جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وإن السياسة الرومانية قد فقدت فيه ناقداً عاماً جريئاً كان في وسعه أن يطهرها من مفسدها .

وكتب نيفيوس أيضاً مسرحية شعرية تعتمد على تاريخ رومة : ووقفت هذه التجربة هي الأخرى عنده ، وظلت المباسى الرومانية بعد أيامه محصورة كلها في دائرة الأساطير الیونانية التي نصب معينها ولم تجد لها منها مخرجاً إلى غيرها من الموضوعات . ولم يبق مما كتبه نيفيوس إلا قطع قليلة منفردة تشهد ببراعته ، ومنها قطعة تصف فتاة لعوباً يقول فيها :

« إنها تنتقل من شخص إلى شخص تنقل من يلعب كرة في حلقة ، وهي كل شيء لكل رجل ، تلقاهم بالفاظها ، وعمزات عينها ، ودلالها ، وعناقها . هذا تضغط عليه بيدها ، وذاك بقدمها ، وثالث تريه خاتمها ، ورابع ترسل له قبلة حارة مغرية من شفيتها ، وهنا أغنية ، وهناك لغة الإشارات » (٤٤) .

وخلیق بنا أن نقول إن النساء لم يكن في ذلك الوقت أقل جمالا وسحرًا مما هن الآن ، وإن الرومان لم يكونوا كلهم متزمتمين كما كان « كاتو » ، وإن الفضيلة كانت تنحى عن مكانها في ظلال أبواب الهياكل نفسها .

ولم يكن للعلوم شأن في تربية المواطن الروماني أو ثقافته إذا استثنينا قواعد الحساب الأساسية ، وما يكفي من الهندسة لتخطيط مزرعة أو معبد . وكان

الأولاد يعدون على أصابعهم (digita) ، ولم تكن الأرقام التي يستخدمونها في العد والحساب إلا صورة للإصبع ممتدة (I) ، ولليد (V) ، أو اليدين متصلتين عند الرسغ X ، وكانوا يكتبون في تكوين الأعداد الأخرى بتكرار هذه الرموز (II ، III) وبإضافة أرقام قبل V ، X أو بعدهما للدلالة على ما هو أقل منها في الحالة الأولى أو أكثر منهما في الحالة الثانية .

ومن هذا الحساب « اليدوي » وضع النظام العشري القائم على أجزاء العشرة ومضاعفاتها ، أي الأصابع العشر . وأجاد الرومان استخدام الهندسة في أعمال البناء وغيرها من الأعمال الهندسية ، ولكنهم لم يضيفوا نظرية واحدة جديدة إلى النظريات التي ابتكرها العقل اليوناني . ولسنا نسمع شيئاً عن الفلك الروماني في هذا العهد إلا ما يتصل منه بالتقويم المليء بالأخطاء ، وبالتنجيم شقيق الفلك أو موجدته .

أما الطب فقد ظل معظمه حتى القرن الثالث مقصوراً على استخدام الأعشاب والسحر والصلوات في البيوت ، وكان الاعتقاد السائد أن الآلهة وحدها هي القادرة على شفاء المرضى ، وكانوا يبتهلون في كل داء إلى إله خاص ، كما نلجأ نحن إلى الطبيب الإخصائي ، لكي يضمنوا لأنفسهم الشفاء من هذا المرض (٤٥) ، فبعوض المناقع الرومانية كان يلجأ في اتقاء أذاه إلى الإلاهتين فبريس Febris ومفتيتس Mephtitis ، كما ظل الرومان إلى القرن العشرين بعد الميلاد يلتمسون الشفاء من الحمى من « سيدة الحميات » La Madonna della Febbre (٤٦) . وكانت الأضرحة الشافية والمياه المقدسة شائعة شيوعها في هذه الأيام .

وكان هيكل اسكيولاپيوس Aesculapius مركزاً كبيراً للعلاج الديني يعتمد فيه على التغذية المناسبة ، والمياه المعدنية ، والوسط الهادئ والنظام الرتيب الخالي من الضجيج ، والدعوات الصالحات ، والمراسم الدينية والمهدئة للأعصاب ،

ومعونة الأطباء المجهزين العمليين ، ولطف مهرة الممرضين ، يعتمد فيه على هذه العوامل كلها لإعادة الثقة إلى نفس المريض ولشفائه من مرضه شفاء يظنون أنه إنما جاء عن طريق المعجزات (٤٧) .

على أنه كان في رومة إلى جانب هذه الوسائل أطباء حقيقيون ودجالون من العبيد قبل المسيح بخمسمائة عام ؛ وكان بعضهم يمارسون طب الأسنان لأن الألواح الاثني عشر كانت تحرم دفن الذهب مع الموتى إلا إذا كان مستخدماً في تغطية الأسنان (٤٨) . ونسمع في عام ٢١٩ ق . م عن أول طبيب من الأحرار في رومة ، وهو أرشجاتوس البلوڤونيزي Archagathus Le Pelopunnes . وقد أعجب الأشراف بجراحاته إعجاباً حمل مجلس الشيوخ على أن يطلب له مسكناً رسمياً وينمحه حرية المدينة . وكان « شغفه الشديد الذي يبلغ حد الهوس بالتقطيع والتحريق » سبباً في تلقيبه فيما بعد بالجزار Carnifex (٤٩) ؛ وأخذ الأطباء اليونان من ذلك الوقت يهرعون إلى رومة حيث أصبحت صناعة الطب في تلك البلاد وقفاً على اليونان .

الفصل الخامس

الزراعة

قلما كان الروماني في تلك العصور يحتاج إلى الطب ، لأن حياته الشبيطة في الزراعة والجنديّة تكسبه صحة وقوة ؛ وكان يجد في فلاح الأرض كما يجد اليوناني في خوض عباب البحر ؛ وكانت الزراعة أساس حياته ، يقيم المدن لتكون مجتمعا للزراع يتبادلون فيها محصولات أرضهم ، وينظم جيوشه ودولته على أساس استعداده للدفاع عن أملاكه وتوسيع رقعتها ، ويفكر في آلهته على أنها أرواح الأرض الحية والسماء المغذية ؛

ونجد الملكية الفردية قائمة في رومة من أقدم العصور المعروفة (٥٠) ؛ على أن بعض الأراضي كانت تعد من الأملاك العامة *ager publicus* التي تستولى عليها الدولة عن طريق الفتح وتحتفظ لنفسها بملكيتها . وكانت أسرة الزراع في عهد الجمهورية الباكر تمتلك فدانين أو ثلاثة أفدنة ، يشتغل فيها جميع أفرادها وعبيدها إن كان لها عبد ، وتعيش عيشة متقشفة على ما تنتجه من الغلات . وكانوا يفرشون القش (٥١) ، ويصحون من نومهم مبكرين ، ويخرجون إلى عملهم ونصف جسمهم العاوى عار من الملابس ، ليحرثوا الأرض ويمهدوها خلف ثيران تسمدها بفضلاتها ؛ وتتخذ لحومها قرابين دينية وطعاما في الأعياد والولائم . وكانت فضلات الآنية تتخذ هي الأخرى سمادا ، ولكن المخصبات الكيميائية كانت نادرة في إيطاليا قبل عهد الإمبراطورية ؛ وقد استورد الرومان في ذلك العهد كتباً في الزراعة العملية في بلاد اليونان ومن قرطاجنة . وكانت الأرض تزوع جاثم خضراً ، ثم تترك من حين إلى حين لتكون مراعى حتى لا يستنفد خصبها وكانت الفاكهة والخضر موفورة ، وكانت بعد البقول أهم غذاء للأهلين ، وكان

الثوم من أحب المشهيات ، وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض
أسر الأشراف قد اشتقت أسماءها من الخضر التي تعنى بزراعتها . ومن
أمثلة ذلك أسر **Caepiones** و **Fabii** و **Lentuli** ، وهي مشتقة من ألفاظ
معناها العدس ، والبصل ، والفول أو الحمص ، ثم طفت زراعة التين
والزيتون والكرام شيئا فشيئا على زراعة الحبوب والخضر ، واستبدل
زيت الزيتون بالزبد في الطعام ، وبالصابون في الاستحمام ، واستخدم
للإضاءة في المشاعل والمصابيح ، كما كان العنصر الأساسي في أدهان الشعر
والجلد التي كانت رياح البحر الأبيض المتوسط الجافة وشمسه المحرقة في
فصل الصيف تحتم عليهم استعمالها . وكان الضأن أهم قطعانهم لأن الإيطاليين
كانوا يفضلون نسيج الصوف على غيره من المنسوجات . وكانت الخنازير
والدجاج تربي في ساحة المزرعة ، وكان لكل أسرة تقريباً حديقة للأزهار (٥٤) هـ
ثم غيرت الحروب هذه الصورة القروية وما فيها من كدح ، ذلك أن
كثيرين من الزراع الذين استبدلوا السيف بالمخراش قد غلبوا على أمرهم
في ميدان القتال أو اجتذبتهم حياة المدن فلم يعودوا قط إلى حقولهم ؛
وكثيرون غيرهم وجدوا أن أرضهم أتلفها الإهمال ، أو الجيوش ، فلم
يجدوا لديهم من الشجاعة ما يحملهم على أن يبدأوا العمل فيها من جديد ؛
ومنهم من قصمت ظهورهم الديون الباهظة ؛ فاضطر هؤلاء كلهم إلى أن
يبيعوا أرضهم بأثمان زهيدة إلى الأشراف أو الممولين الزراع ؛ وضم
هؤلاء المزارع الصغيرة بعضها إلى بعض وكونوا منها ضياعاً واسعة
كبيرة **Latifundia** ، واستبدلوا بزراعة الحبوب في هذه الضياع مراعى
للضأن والماشية ، وبساتين وكروما ، وحشدوا فيها عبيداً من أسرى الحروب
يعملون فيها على أعين مشرفين ، كانوا هم أيضاً عبيداً في أغلب الأحيان
وكان الملاك يأتون إلى هذه الضياع بين الفينة والفينة ليلقوا نظرة على

أملاكهم ؛ ولم يكونوا هم أنفسهم يقومون فيها بعمل من الأعمال ، بل كانوا يعيشون عيشة الملاك الغائبين عن أملاكهم في منازل ذات حدائق في الريف ، أو في قصور في رومة . وقد بدأ هذا الاتجاه الجديد قبل القرن الرابع ، حتى إذا حل القرن الثالث قبل الميلاد نشأت في الريف طائفة من المستأجرين الذين أثقلتهم الديون ، وفي العاصمة طائفة من الصعاليك الذين لا ملك لهم ، وانتشرت بينهم روح التدمير والغضب من وضعهم ؛ وما لبث هذان التدمير والغضب أن قضيا على الجمهورية التي أقامها كدح الفلاحين .

الفصل السادس

الصناعة

لم تكن أرض إيطاليا غنية بمعادنها - وكان لفقرها في هذه المعادن أكبر الأثر في تاريخ إيطاليا الاقتصادية والسياسي ؛ فلم يكن في البلاد ذهب قط ، وكانت الفضة جد نادرة ، وكان فيها قدر لا بأس به من الحديد ، كما كان بها بعض النحاس والرصاص ، والقصدير ، والحارصين ، بكميات قليلة لا تكفي لقيام الصناعات . وكانت جميع المناجم في الإمبراطورية كلها ملكاً للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها استغلالاً مجزياً على أيدي آلاف من العبيد . ولم تتقدم صناعة التعدين أو الفنون الصناعية في البلاد إلا قليلاً ؛ ولكن البرنز في ذلك العهد كان لا يزال أكثر استعمالاً من الحديد ؛ ولم تكن الآلات الرافعة والدلاء ذات السلاسل التي أقامها أركميدس Archimedes وغيره من العلماء في صقلية ومصر تستخدم إلا في نحر المناجم الإيطالية وأحدثها . وكان الخشب أهم أنواع الوقود تقطع له الأشجار كما تقطع أيضاً لاستخدامها في بناء البيوت وصنع السفن والأثاث ؛ ومن أجل هذا أخذت الغابات تنقص مساحتها وتندعم شيئاً فشيئاً من سفوح الجبال ، حتى وصل التقطيع إلى الحد الأعلى الذي لا تنمو فوقه الأشجار . وكانت أروج الصناعات وأكثرها ازدهاراً صناعة الأسلحة والعدد في كمانيا . ولم يوضع قط نظام للمصانع إذا استثنينا مصانع الأسلحة والفخار ، ولم يكن الفخريون يصنعون الصحف وحدها بل كانوا يصنعون معها الآجر ، والقرميد ، والأنابيب ، والقنوات التي تجري الماء إلى البيوت . وكان في أريتيوم وغيرها يقلدون النماذج اليونانية ويتعلمون صناعة الآنية الفنية . ولم يحل القرن السادس قبل الميلاد حتى كانت صناعة النسيج قد تخطت المرحلة المنزلية في نقش

التيل والصوف وإعدادهما وصبغهما ، وذلك على الرغم من أن صناعة الغزل كان يقوم بها البنات والأزواج والعبيد . أما النساجون الأحرار وغير الأحرار فقد جمعوا في مصانع صغيرة لا تنتج للأسواق المحلية وحدها بل تنتج كذلك ما يلزم منها لتجارة التصدير .

أما الإنتاج الصناعي للاستهلاك غير المحلي فقد كانت تعطله صعاب النقل . ذلك أن الطرق كانت رديئة والقناطر غير مأمونة ، والعربات التي تجرها الثيران بطيئة ، والنزل في الطرق نادرة ، وكان اللصوص كثيرين ، ومن ثم اتجهت حركة النقل إلى القنوات والأنهار ؛ أما المدن الساحلية فكانت تستورد حاجتها من البضائع بطريق البحر لا من المدن الواقعة خلفها بطريق البر . وما أن حلت سنة ٢٠٢ ق . م حتى كان الرومان قد أنشأوا ثلاثة من الطرق « القنصلية العظيمة » وقد سميت طرقاً قنصلية لأنها كانت تسمى عادة باسم القناصل أو الرقباء الذين كانوا يبدأونها . وما لبثت هذه الطرق العامة أن فاقت في صلابتها واتساعها الطرق الفارسية والقرطاجنية التي اتخذها الرومان نماذج لهم في بادئ الأمر . وكان أقدم هذه الطرق طريق فيا لاتينا *via Latina* الذي خرج به الرومان حوالي عام ٣٧٠ ق . م إلى تلال ألبان . وبدأ أيبوس كلوديوس *Appius Claudius* الضريير في عام ٣١٢ طريق فيا أيبيا *via Appia* أو الطريق الأيباوي الذي يصل رومة بـ *Capua* واستخدم في إنشائه آلاف من المجرمين (٥٥) ، ثم مد هذا الطريق فيما بعد إلى بنشتم ، وفنوزيا *Venusia* ، وبرنديزيوم *Brundisium* ، وتارنتم . وكان هذا الطريق البالغ طوله ٣٣٣ ميلاً إنجليزيا يربط ساحلي شبه الجزيرة الشرق والغربي ، ويبسر التجارة مع بلاد اليونان والشرق كما كان هو وغيره من الطرق غاملاً كبيراً في توحيد إيطاليا . وفي عام ٢٤١ ق . م شرع الرقيب أورليوس كوتا *Aurilius Cotta* في إنشاء الطريق الأوريلي الممتد من رومة إلى أنتيبيس *Antibes* مخترقاً مدينتي *Pisa* ،

وجنوى Genoa . وافتتح كيوس فلامينوس Calus Flaminus في عام ٢٢٠
الطريق الفلاميني المؤدى إلى أرمينوم Ariminum ، ثم أنشئ حوالى ذلك
الوقت نفسه الطريق القليري Valerian بين تيبور Tipur وكرفينيوم
Corifinium . وهكذا أخذت شبكة الطرق الفخمة تتسع شيئاً فشيئاً : فصعد
الطريق الإميلى Aemilian نحو الشمال من أرمينوم مخترباً بونوليا Bononia
وموتينا Mutina إلى بلاسنتيا Placentia (عام ١٨٧) ، وربط الطريق
الپستونى Postumian جنوى بقرونا Verona (١٤٨) وسار طريق پوبيليا
Via Popilia من أرمينوم مخترباً رافنا Ravenns إلى پدوا Padua
(١٣٢) ثم أنشئت الطرق فى القرن التالى من إيطاليا إلى خارجها - إلى
بورك York ، وفيينا Vienna ، وثلونيكيا ، وThessalonica ، ودمشق ،
كما امتدت على طول ساحل إفريقيا الشمالى . وأفادت هذه الطرق فى الدفاع
عن الإمبراطورية وتوحيدها ، وبعث الحياة فيها ، وذلك بمساعدتها للجيوش
على سرعة الحركة ونشر الأنباء والعادات والأفكار فى ربوعها ، كما أضحت
مسالك عظيمة للتجارة ، وكان لها شأن أيمان فى تعمير إيطاليا وأوربا
وزيادة ثرائها .

لكن التجارة لم ترج فى إيطاليا على الرغم من هذه الطرق الكبرى
رواجها فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن رجال الطبقات العليا
كانوا ينظرون بعين الاحتقار إلى الشراء بأثمان بخسة والبيع بأثمان مرتفعة ،
ولذلك تركوا التجارة الداخلية لليونان والمحمرين من أبناء الشرق ؛ هذا
فى المدن ، أما الريف فقد كان أهله يكتفون بالأعياد التى تقام من حين
إلى حين ، وبأسواق اليوم التاسع فى المدن .

كذلك لم تبلغ التجارة الخارجية شأواً عظيماً لأن النقل البحرى كان معرضاً
للأخطار ، فقد كانت السفن صغيرة الحجم لا تزيد سرعتها على ستة أميال فى
الساعة سواء أكانت تسير بالشرع أم بالمجاديف ، ولم تكن تبعد عن الشاطئ

ولا يجروُ معظمها على الخروج من الموانئ من شهر نوفمبر إلى شهر مارس كذلك كانت قرطاجنة تسيطر على غربى البحر الأبيض المتوسط والممالك الإغريقية تسيطر على شرقيه ، وكان لصوص البحار ينقضون من مكائهم من حين إلى حين على التجار الذين هم أكثر منهم شرفاً إلى حد ما .

وفوق هذا كله كان نهر التير دائب العمل على طمر مصبه وسد مدخل ميناء رومة عند أستيا Ostia ؛ وقد حدث أن غرقت مثلثا سفينة فى هذا الميناء على أثر عاصفة هوجاء . يضاف إلى هذا وذلك أن التيار كان قوياً بحيث يجعل سير السفن صاعدة فيه إلى رومة عملاً لا يوازي ما يتطلبه من مشقة وما يتكلفه من مال ، ومن أجل هذا بدأت السفن حوالى عام ٢٠٠ ق . م ترسو عند بتيولى على بعد مائة وخمسين ميلاً جنوبى رومة ، ومنها تنقل حولتها برآ إلى العاصمة .

وكان لا بد لتيسير هذه الحركة التجارية الداخلية والخارجية من وضع نظام للنقود ، والمقاييس ، والمكاييل ، والموازين ، مضمون من الدولة (*) .

لقد ظلت الماشية حتى القرن الرابع قبل الميلاد تتخذ وسيلة للتبادل ، ذلك لما لها من قيمة عند جميع الناس ، ولأنها كان يسهل نقلها من مكان إلى مكان . فلما اتسع نطاق التجارة استخدمت قطع من النحاس ، خشنة الصنع خير مهذبة تسمى الإيس Aes واسطة للتعامل (حوالى ٣٣٠ ق . م) . وقد اشتقت الكلمة الإنجليزية الدالة على القيمة estimate من كلمتي Aes timare أى تقويم النحاس . وكانت الوحدة المستعملة فى تقويم الأشياء هى الآس As (الواحد) وكان وزنها رطلاً من النحاس ، ولما أن سكّت

(*) وإلى التارى بعض المقاييس والمكاييل الرومانية : الموديوس Modius ومقداره ربع بوشل (والبوشل يساوى ٢٤ ر ٣٥ لترا) ، والقدم ومقدارها $11\frac{3}{8}$ بوصة إنجليزية ؛ وكانت خمس أقدام رومانية تساوى خطوة (Passus) ، وألف خطوة تساوى ميلاً (Mil a passum) ومقداره ١٦١٩ ياردة إنجليزية ، وكان الأيوجيرم (iugerum) يساوى $\frac{1}{2}$ فدان إنجليزى Acre تقريباً ؛ وكانت (اثنتا عشرة أوقية (Unciae) تساوى رطلاً .

الدولة عملة نحاسية حوالى عام ٣٣٥ ق . م كانت تطبع عليها في الغالب صورة ثور ، أو شاة ، أو خنزير ، ومن ثم سميت بيكونيا pecunia (من بيكس pecus أى ماشية) .

ويقول بلني إنه لما شبت الحرب اليونية الأولى « ولم تجد الجمهورية من الأموال ما يفي بحاجاتها ، خفضت وزن الآس إلى أوقيتين من النحاس ، وبهذه الوسيلة اقتصدت في قيمته ، وأفلحت في تصفية الدين العمومي » (٥٦) . وما أن وافي عام ٢٠٢ حتى كان وزن الآس قد نقص إلى أوقية واحدة ، ثم خفض في عام ٨٧ إلى نصف أوقية لتستعين الدولة بذلك على تمويل الحرب الاجتماعية . وفي عام ٢٦٩ سكّت قطعان من النقود الفضية أولاها الديناريوس Denarius وكان يساوى عشرة آسات ، أى قيمة الدرخة الأثينية في صورتها الهلينية المخفضة ، والأخرى الستريوس ومقدارها آسان ونصف آس أو ربع ديناريوس . وفي عام ٢١٧ ظهرت أول عملة ذهبية رومانية - الأورى aurei - وكانت قيمته عشرين أو أربعين أو ستين سستريوس .

أما من حيث قيمة المعادن التي تحتويها كل قطعة من هذه النقود فقد كان في الآس ما قيمته $\frac{3}{4}$ والسستر $\frac{1}{2}$ والديناريوس $\frac{1}{4}$ من الريال الأمريكي .

وإذ كانت المعادن الثمينة أقل كثيراً منها في هذه الأيام ، وكانت قيمتها الشرائية لهذا السبب أضعاف قيمتها في الوقت الحاضر (٥٧) ، فإن في وسعنا إذا غرضنا النظر عن تقلبات الأثمان في عهد نيرون أن نقوم الآس والسستريوس والثالث (٦٠٠٠ ديناريوس) في عهد الجمهورية الرومانية بـ $\frac{1}{4}$ ، $\frac{1}{2}$ ، $\frac{3}{4}$ ، ٣,٦٠٠ ريال أمريكي على التوالي حسبما كانت قيمة الريال في عام ١٩٤٢ (٥٨) .

(٥٨) وكان البوشل من القمح في شمال إيطاليا يباع حوالى عام ٢٥٠ ق . م بنصف ديناريوس (أى $\frac{3}{4}$ من الريال) وكان المبيت والطعام في النزول مدة يوم يتكلفان نصف آس ($\frac{3}{4}$ من الريال) (٥٨) ، وكانت أجرة المنزل المتوسط القيمة في ديلوس Delos في القرن الثاني قبل الميلاد أربعة دنائير (٢٤ ريال) في الشهر ، وكان ثمن الطبق والفنجال في رومة عام ٥٠ ب . م نصف آس ($\frac{3}{4}$ من الريال) (٥٩) .

وكان إصدار هذه العملة المضمونة عاملاً مهماً في تدعيم الأعمال المالية في البلاد ، فقد كان الرومان الأولون يستخدمون الهياكل في أعمال المصارف ، كما نتخذ نحن المال إلهاً لنا والمصارف هياكل نعبد فيها من دون الله . وقد ظلت الدولة نتخذ الأضرحة القوية البناء مستودعات للأموال العامة ، ولعلها كانت ترى أن الدين قد يلقي الرعب في قلوب اللصوص فلا يقدمون على السرقة ؛ وكان إقراض المال من أقدم الأعمال في رومة ، وشاهد ذلك أن الألواح الاثني عشر تحرم الربا إذا زاد على $\frac{1}{3}$ ٪ في السنة (٦٠) ، ثم خفض سعر الفائدة القانوني في عام ٣٤٧ إلى خمسة في المائة ، ثم حرم الربا على الإطلاق في عام ٣٤٢ ق . م

ولكن المرابين كان في وسعهم أن يروغوا من هذا التحريم الأرسطاطيلي ، وكان أقل سعر للفائدة يتقاضونه فعلاً لا يقل عن ٢ ٪ . وفضلاً عن هذا فقد كان الربا الفاحش (الذي يزيد على ١٢ ٪) واسع الانتشار ، وكان يحدث من حين إلى حين أن يتخلص المدينون من ديونهم بالإفلاس أو التشريع ؛ وحدث في عام ٣٥٢ ق . م أن استخدمت الحكومة وسيلة جد حديثة للتخفيف عن المدينين : ذلك أنها تكلفت هي بالرهون التي كان الوفاء بها مرجحاً أكثر من غيرها ، وأقنعت الزاهنين بأن يقبلوا عن الرهون الأخرى فوائد أقل من التي تعاقدوا عليها (٦١) ، وأصبح أحد الشوارع المجاورة للسوق العامة Forum حتى رجال المصارف ، وازدهمت فيه حوانيت المقرضين (argentarii) والصيارفة مبدلي النقود (trapezitae) . وكان في وسع الأهلين أن يقترضوا المال بضمان الأرض والمحاصيل الزراعية والأوراق المالية ، والعقود الحكومية ، كما كان في وسعهم أن يقترضوا لتمويل المشروعات التجارية والرحلات البحرية ، وكان محل محل التأمين الصناعي السائد في أيامنا الحاضرة نظام الإقراض التعاوني ؛ وكان يحدث أن يشترك عدد من أصحاب المصارف في تقديم الأموال اللازمة لمشروع ما بدل أن ينفرد واحد منها بتمويله . وكانت هناك شركات مساهمة أشهر ما كانت تقوم به من الأعمال تنفيذ

العقود الحكومية التي يبرمها الرقيب بعد أن تقدم إليه عنها عطاءات . وكان أصحاب هذه العطاءات يحصلون على المال اللازم لقيامهم بهذه الأعمال ببيع ما لديهم من الأسهم والسندات للجمهور في صورة « أجزاء صغيرة » أي أسهم *particulae* أو (*partes*) . وقد اضطلعت هذه الشركات المؤلفة من رجال يقومون بالمشروعات العامة أو مشروعات الدولة بعمل خطير في تموين الجيش والأسطول في الحرب البرنية الثانية بما يحتاجه من المؤن والعتاد ونقلها إليهما ، ولم يفتها في هذا العمل أن تحاول ما يحاوله غيرها من الشركات ، وهو أن تخدع الحكومة (٦٢) ، وكان رجال الأعمال *equites* هم الذين يديرون هذه المشروعات الكبرى ، أما ما كان أصغر منها فكان يديره الأرقاء المحررون ، وكانت المشروعات غير الحكومية يديرها مديرو الأعمال *negotiatunes* وكان هؤلاء يدبرون لأنفسهم ما يلزمهم من المال .

وكانت الصناعة في أيدي صناع مستقلين يشتغل كل منهم في حانوته الخاص ، وكان معظم هؤلاء الصناع من الأحرار ولكن كان إلى جانبهم عدد من المحررين ومن الأرقاء أخذ يتزايد على مر الأيام . وكانت الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الصناع مختلفة كل الاختلاف ، وكان أكثر ما ينتجون للسوق لا للعميل الخاص . وقد أدى التنافس بين العمال الأحرار والأرقاء إلى خفض أجور الأوابين ، فانحط مستوى العمال إلى درجة من البؤس لا تقل عن بؤس أفقر عمال المدن الذين يعيشون في أقاليم الأحياء في هذه الأيام . ولم يكن لإضراب هؤلاء العمال عن العمل ذا فائدة لهم ولذلك كان نادر الحدوث (٦٣) ، غير أن الفتن بين الأرقاء كانت كثيرة ، ولم تكن « حرب الأرقاء الأولى » (١٣٩ ق . م) أولى هذه الفتن . ذلك أن التدمير إذا اشتد وضاق الناس ذرعاً بمعيشتهم ، كان من السهل تلمس سبب للحرب تهيء أعمالاً للمتعطلين ، وتيسر انتشار النقود المنخفضة القيمة ، وتوجه غضب الشعب نحو عدو خارجي يطعم الرومان من أرضه إذا انتصروا ،

أو تستسلمهم هذه الأرض موتى أو أسرى إذا هزموا (٦٤) . وكان للأحرار من العمال اتحادات أو جماعات طائفية (Collegia) . ولكنها قلما كانت تعنى بمسائل الأجور أو ساعات العمل أو ظروفه . وتعزو الروايات المتواترة إلى نوما Nums فضل إنشاء هذه الاتحادات أو الاعتراف بمشروعيتها . وسواء صح هذا أو لم يصح فإننا نعرف أنه كان في القرن السابع قبل الميلاد منظمات للزمارين ، والصائغين ، والنحاسين ، وطارقي الحديد ، والحداثين ، والفخريانيين ، والصباغين ، والنجارين (٦٥) . وكانت جماعات « الفنانين الديونيزيين » Dionysian Artists - الممثلين والموسيقيين - من أكثر الجماعات انتشاراً في العالم القديم . وقد كان في رومة قبل بداية القرن الثاني قبل ميلاد المسيح جماعات طائفية للطباخين ، ودابغى الجلود ، والبنائين ، وصناع البرنز ، والحدادين ، وصانعي الحبال ، والنساجين ، ولكن الراجح أن هذه الطوائف كانت قديمة قدم الطوائف السالفة الذكر . وكان أهم أهداف هذه الاتحادات وأمثالها مجرد السرور الذي تبعثه الصلوات الاجتماعية في قلوب أعضائها . وكان الكثير منها جمعيات تعاونية تكفل نفقات دفن الموتى .

ولم تكن الدولة تنظم شؤون هذه الاتحادات والجماعات الطائفية وحسب ، بل كانت تنظم كذلك كثيراً من النواحي في حياة رومة الاقتصادية ، فكانت تشرف على استغلال المناجم وعلى غيرها من الامتيازات والعقود التي كانت تبرمها الحكومة ، وكانت تهدي الاضطرابات التي يثيرها العامة باستيراد الطعام وتوزيعه بأثمان اسمية على الفقراء أو على كل من يطلبه . وكانت تفرض الغرامات على الاحتكارات ؛ وقد أمت صناع تعدين الملح لتقضى بذلك على احتكار هذه الصناعة ، بعد أن ارتفع من الملح بسبب هذا الاحتكار ارتفاعاً جعله في غير متناول طبقة العمال . وكانت رومة تتبع سياسة حرية التجارة ، ولذلك فإنها لما تغلبت على قرطاجنة فتحت غرب البحر المتوسط لتجارة الأمم جميعها ؛ وقررت حماية يتكا Utica ثم دياوس مشرطة عليها في نظير هذه الحماية أن يظلا ميناءين

حرين تدخل فيهما البضائع وتخرج منهما دون أن تؤدي لهما رسوماً ،
على أنها كانت في بعض الأحيان تحرم تصدير السلاح ، والحديد ، والخمر ،
والزيت ، والحبوب ، وكانت تفرض على معظم الغلات التي تدخل رومة
عوائد جمركية تقدر عادة باثنين ونصف في المائة من قيمتها ، ثم امتدت
هذه الضريبة القليلة فيما بعد إلى غيرها من المدن ، وظلت حتى عام ١٤٧ ق . م
تفرض ضريبة على الأملاك (tributum) في جميع أنحاء إيطاليا . ويمكن
القول بوجه عام إن إيرادات الدولة لم تكن كثيرة وإن أهم ما كانت
تستخدم فيه هو نفقات الحرب ، شأنها في هذا شأن غيرها من الدول
المتحضرة (٦٦) .

الفصل السابع

المدينة

أصبحت رومة في عام ٢٠٢ ق. م من كبريات المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، بفضل ما كان يدخل خزائنها من الضرائب والغرامات التي تفرضها على أعدائها ، وبفضل من كان يفد إليها من الحلاق ليسكنوا فيها .

وقد سجل فيها الإحصاء الذي أجرى في عام ٢٣٤ قبل الميلاد ٢٧٠٧١٣ من المواطنين - أي من الذكور الراشدين الأحرار . ثم نقص هذا العدد نقصاً فجائياً خلال الحرب الكبرى ، ولكنه ارتفع في عام ١٨٩ إلى ٢٥٨٣١٨ وإلى ٣٢٢٠٠٠ في عام ١٤٧ ، وفي وسعنا أن نقدر سكان دولة المدينة في عام ١٨٩ ق. م بما يقرب من ١٠٠٠٠٠٠ ولربما كان ٢٧٥٠٠٠ من هؤلاء يسكنون في داخل أسوار رومة . وكان في إيطاليا جنوب الروبيكون Rubicon نحو ٥٠٠٠٠٠ من السكان (٦٧) . وكانت الهجرة وامتصاص الشعوب المغلوبة ، وتدفق السكان ، وتحرير الأرقاء ومنحهم الحقوق السياسية - كانت هذه العوامل كلها قد أخذت تحدث في رومة تلك التغيرات العبقورية التي جعلتها في عهد نيرون نيويورك الزمن القديم ، نصف سكانها من البلاد الأصليين والنصف الآخر خليط من كافة الأجناس . وكان في المدينة شارعان رئيسيان متقاطعان يقسمانها إلى أحياء منفصلة ، لكل منها موظفوه الإداريون وأربابه الواقون . وقد شيدت إلى آلهة ملتي الطرق **Lares Compitales** معابد عند ملتي للطرق الهامة وأقيمت لها تماثيل عند ملتي الطرق الأقل من هذه أهمية - وهي عادة لطيفة لا تزال متبعة في

إيطاليا . وكانت معظم الطرق بحالها الطبيعية ، وكان بعضها مرصوفاً بحجارة
ملساء مستخرجة من أقواع الأنهار ككثير من مدن البحر الأبيض المتوسط
في هذه الأيام . وقد دامت هذه الحال حتى شرع الرقيب حوالي عام ١٧٤
يغطي أرض الشوارع الكبرى بكتل من اللحم البركانية . وقد بنى أبيوس
كلوديوس الأعمى في عام ٣١٢ أولى القنوات المعروشة لبحر المياه العذبة إلى
المدينة التي ظلت حتى ذلك الوقت تعتمد على العيون والآبار ومياه التبر العكرة .

وأقام الأشراف صهاريج تستمد الماء من هذه القنوات ، ومدت منها
الأنابيب في بيوتهم ، وركبت عليها الصنابير ، فاستطاع الأشراف أن
يستحموا بمائها أكثر من مرة في الأسبوع ؛ ثم افتتحت رومة حماماتها
الأولى التابعة للبلدية بعد هزيمة هنيبال بزمن قليل . وشاد المهندسون
الرومان أو التسكان في وقت غير معروف المجرى الأكبر Cloaca Maxima
لنقل مياهها القذرة ، وقد بلغت العقود الحجرية الضخمة لهذا المجرى درجة
من الاتساع تسمح بمرور عربة محملة بالدريس من تحتها (٦٨) . ثم أنشئت
مجارى صغرى لصرف مياه المناقع التي كانت تحيط برومة وتغفر عليها في
بعض الأوقات ، وكانت مياه الأمطار والمياه القذرة تجري من فتحات في
الشوارع إلى هذه المصارف ، ثم تنتقل منها إلى نهر التبر . وقد ظلت مياهه
الملوثة مشكلة المشاكل في الحياة الرومانية .

وربما كانت المعابد هي مظاهر الزينة الوحيدة التي كانت في المدينة .
ذلك أن البيوت ظلت مستمسكة بالطراز التسكاني البسيط الذي وصفناه
من قبل ، لا يفترق عنه إلا في شيء واحد وهو أن جدرانها الخارجية
كانت تبنى في الغالب من الآجر أو تطلّى بمسحوق الجبس الناعم ،
وكثيراً ما كانت هذه الجدران تشوه بما يندش عليها من الشعر أو النثر في
ذكر حادث من الحوادث التافهة التي لا يلبث الناس أن ينسوها بعد وقوعها .
ولم يكونوا يقصدون بكتابتها إلا أن يدلوا على ازدياد نسبة من يعرفون

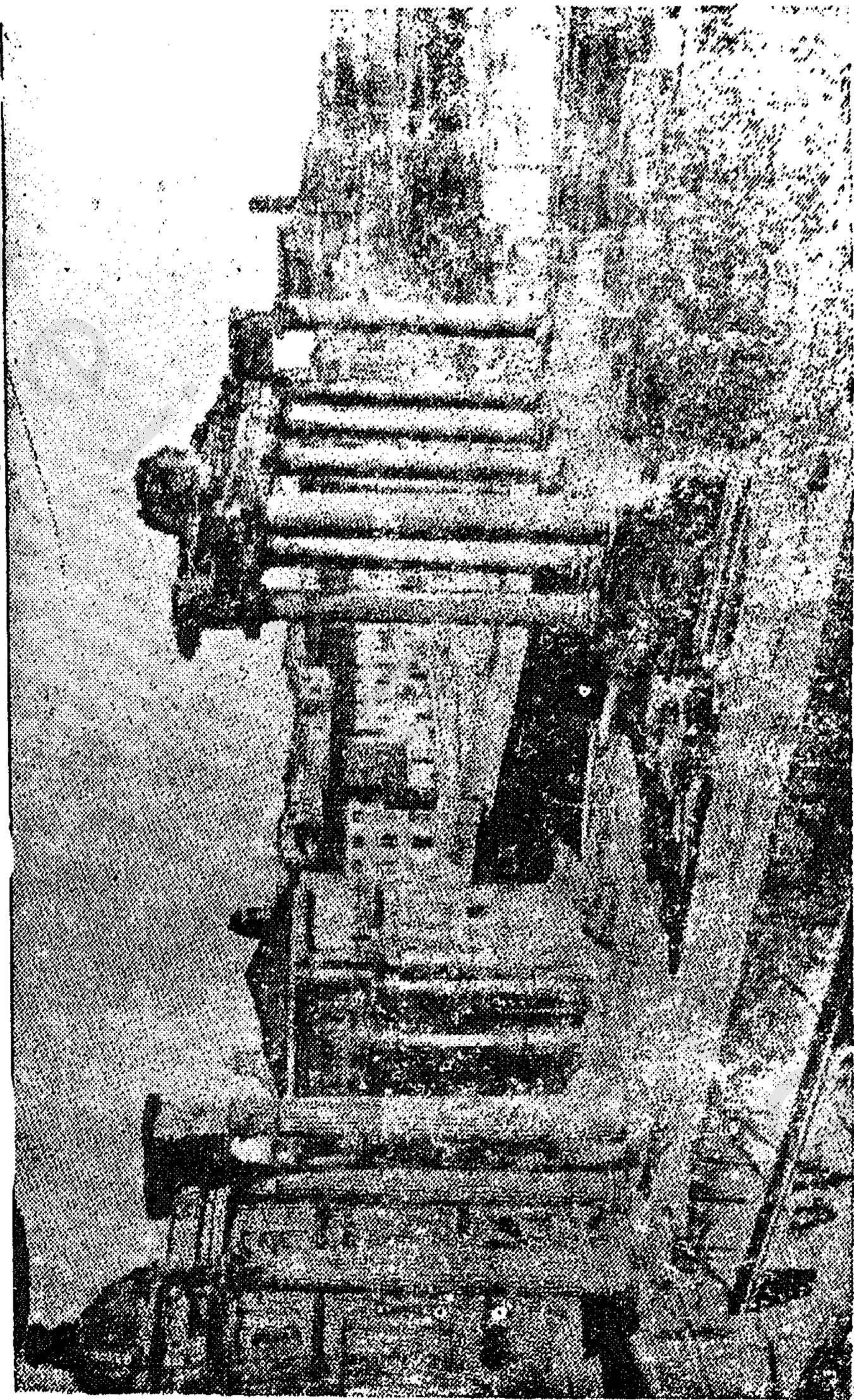
منهم القراءة والكتابة ، وكانت الهياكل تبنى في الغالب من الخشب ، وكانت واجهاتها وزينتها من الطين المحروق ، وكان طرازها هو الطراز التسكاني . وقد أقيمت على تل الكپتولين هياكل لچوبتر ، ويونو ، ومنيرفا ، وأقيم ميكل آخر لئديانا على الأفتنين Aventine ، وأقيمت هياكل غيرها (قبل عام ٢٠١ ق . م) ليونو ، والمريخ ، ويانوس Janus ، والزهرة ، وللنصر . والحظ السعيد ، والأمل وما إليها . وفي عام ٣٠٣ ق . م أضاف كيبوس فايوس إلى اسم عشيرته النباتي لقب پكتور Pictor أى المصور . وذلك لأنه عمل مظلمات في هيكل الصحة القائم على الكپتولين . وأقام المثالون اليونان في رومة تماثيل للآلهة الرومانية والأبطال الرومانيين من الآجر ، والرخا ، والبرنز ؛ وقد أقاموا في عام ٢٩٣ على الكپتول تماثلاً لچوبتر بلغ من ضخامتها أن كان يراه الواقف عند تلال ألبان Alban التي تبعد عنه عشرين ميلاً . وفي عام ٢٩٦ أقام الأيديلون (الموظفون الرومان المشرفون على المباني العامة والألعاب وغيرها) تماثلاً من البرنز لذئبة أضاف إليه الثنائون فيما بعد صورتين لرمبوليوس وريموس . ولسنا نعرف أهذه هي المجموعة التي جاء وصفها على لسان شيشرون أم أنها مجموعة أخرى ، وإن لم تكن فهل هذا أو تلك هي بعينها « ذئبة الكپتول » التي لا تزال باقية إلى هذا اليوم . ومهم يكن من شيء فإن هذا التمثال الأخير آية فنية أوفت على الغاية في الإتقان ؛ فهي تمثال من الجهاد ينبض بالحياة في كل عضلة من عضلاته وكل عصب من أعصابه .

وبينا كان الأشراف يخذون انتصارهم ويمتدحون أسلافهم كان العام يتأسون بسماع الموسيقى ، وبالرقص ، والمسرحيات المضحكة ، والألعاب . وكانت طرقات إيطاليا وبيوتها تردد أصداء الأغاني الفردية والجماعية ، فكان الرجال يغنون في المآدب والأولاد والبنات يرددون الترانيم في المواكب الدينية ، وكانت حفلات الزواج لا تخلو قط من الأناشيد كما كانت الأغاني تصحب جنازات الأموات . وكان المزمارة أكثر آلات الطرب شيوعاً ولكن القيثارة أيضاً كان

لها من يهواها حتى أضحت الآلة المحبوبة التي ينشد على نغماتها الشعر الغنائي .
وكان الرومان في أيام الأعياد الكبرى يجتمعون في المدرجات وساحات اللعب
يكتوون بنار الشمس ، بينما كان المستأجرون والأسرى والمجرمون والأرقاء
يعدون ، أو يقفزون ، أو يقتتلون ، ويموتون ؛ وكان الاقتتال والموت أحب
إلى الجماهير من العدو والقفز ؛ وكان في المدينة مدرجان كبيران هما الساحة
الكبرى (ويقال إن الذي أنشأها هو تاركوين الأول) وساحة فلامينوس
(٢٢١ ق م) - وكان يدخلهما من غير أجر كل من يصل إليهما من الرجال
والنساء في الوقت الذي يمكنهم من أن يجدوا فيهما مكاناً . وكانت الدولة في
بادئ الأمر هي التي تتكفل بالإنفاق على الملعبين ، ثم تكفل بهما بعدئذ
الإيديلون ، أما في العهد المتأخر من حياة الجمهورية فكان ينفق عليهما
المرشحون لمنصب القناصل ؛ وأخذت هذه النفقات تزداد جيلاً بعد جيل حتى
أضحت في واقع الأمر سداً منيعاً يحول بين الفقراء وبين التقدم لمناصب القناصل

ولعل من واجبنا أن نضم إلى هذه الألعاب « حفلات النصر » التي
كانت تقام للقواد العائدين من ميادين القتال ؛ ولم تكن هذه الحفلات
تقام إلا لمن انتصروا منهم في حرب قتل فيها من الأعداء خمسة آلاف
أو يزيدون . أما للقائد المنحوس الذي انتصر ولكنه لم يقتل من أعدائه هذا
العدد كله فلم يكن يلقي هذا النوع من الترحيب ، ولم يكن يضحى له
بثور بل بشاة *ovis* ؛ وكان الناس ينتظمون في الموكب خارج المدينة ،
وكان يطلب إلى القائد هو وجنوده عند حدودها أن يلقوا أسلحتهم ،
ثم يدخلها الموكب من تحت قوس نصر ، أتخذ فيها بعد طرازاً لعشرات المئات
من الآثار . وكان النافخون في الأبواق يتقدمون الموكب ثم تأتي من
بعدهم أبراج أو أرماث تمثل المدن التي استولى عليها ، وصور تدل على
ما قام به المنتصرون من أعمال البطولة . ثم تكرر من بعدها عربات
مثقلة بالذهب والفضة ؛ ومنتجات الفن وغيرها من الأسلاب . وقد اشتهر

موكب النصر الذي أقيم لمسلسل بما كان فيه من التماثيل المسروقة من سرقوسة (٢١٢) ؛ وعرض سبيو الإفريقي في عام ٢٠٧ أربعة عشر ألف رطل من الفضة ، وفي عام ٢٠٢ مائة وثلاثة وعشرين رطلا استولى عليها في أسبانيا وقرطاجنة ، وتبعها سبعون ثوراً أبيض تسير إلى مصرعها سير الفلاسفة ، ومن ورائها زعماء العدو المأسورون ثم الجلادون ، والضاربون على القيثار ، والزمارون ، وحاملو آنية البخور ، ومن بعد هؤلاء كلهم يمر القائد نفسه في عربة زاهية مزينة ويلبس جبة أرجوانية ، وعلى رأسه تاج من الذهب ، وفي يده صولجان من العاج وغصن من شجر الغار ، وهما رمز النصر ، وشعار جوف jove . وكان يركب معه في العربة أحياناً أبنائه ، ويركب في عربة تسير بجوارها أقاربه ؛ ثم يأتي من خلفهم أمناء سره من المدنيين والعسكريين ، ويأتي في آخر الموكب الجنود يحمل بعضهم ما نالوه من الأغطية ، وعلى رأس كل منهم تاج ، يمتدحون قوادهم ، وبعضهم يسخرون منهم . ذلك أن التقاليد المرعية التي لا يمكن خرقها كانت ترك للجنود في هذه الفترات القصيرة كامل الحرية في أن ينطقوا بما يريدون أن ينطقوا به دون أن يعاقبوا عليه ، وذلك لكي يذكروا المنتصرين المزهوين بنصرهم أنهم كسائر الناس معرضون للأخطاء ، وكان القائد يصعد الكبتول إلى جوبتر ، ويونو ، ومنيرفا ، ويضع قدمه عند أقدام الآلهة ، ويضحى بحيوان ما ، وكان يأمر عادة بأن يذبح زعماء من الأسرى مبالغة في شكر الآلهة . وكان هذا الموكب منظماً تنظيماً يثير في النفس المطامع العسكرية ، ويجزى القواد والجنود أحسن الجزاء على جهودهم الحربية ؛ ذلك أن زهو الإنسان وغروره لا يخضعان إلا للجوع والحب .



(شكل ٧) السوق الرومانية الكبرى

الفصل الثامن

بعد الموت

لقد كانت الحرب أروع النواحي الروائية في حياة الرجل الروماني ، ولكنها لم يكن لها ذلك الشأن الخطير الذي تحدثنا عنه صحف المؤرخين الرومان . ولعل حياة الروماني كانت تدور كلها حول أسرته وبيته أكثر مما تدور حولها حياة الرجل منا في هذه الأيام . وكانت أخبار العالم لا تصل إليه إلا متأخرة ، ومن أجل هذا لم يكن ما يتجمع في العالم من اضطراب يستثير عواطفه في كل يوم ، ولم تكن الحوادث العظيمة التي تمر به في حياته هي السياسة والحرب ، بل كان أهم ما يعنى به مولد الأطفال وحفلات الزواج وأخبار الموت المحزنة .

ولم يكن كبر السن تلازمه تلك الوحشية والهجران اللذان ينغصان على الكبار حياتهم في العصور التي تشيع فيها الفردية . ذلك أن الصغار كانوا يرون أن من الفروض الواجبة عليهم أن يعنوا بالكبار ، وقد ظل هؤلاء إلى آخر عهود الجمهورية أجدر الناس بالرعاية وأعظمهم سلطاناً ، وكانت قبورهم بعد وفاتهم مواضع التكريم ما دام لهم أبناء أو أحفاد على قيد الحياة . ولم تكن الجنائز تقل فخامة وتعظيماً عن مواكب الأفراس ، فكان يسير في طليعتها جماعة من النادبات المأجورات فلما تغالين في عويلهن وهوسهن قيد هذا التغالي بنص في الألواح الاثني عشر (٧١) يحرم عليهم اقتلاع شعرهن . ويتلو هؤلاء النسوة الزمارون وقد حدد القانون عددهم باثني عشر ، ثم الراقصون يمثل الميت واحد منهم . ويأتي من بعد هؤلاء عرض عجيب لجماعة من الممثلين يلبسون أقنعة الموت أو وجوهاً من الشمع في صورة آباء الميت الذين شغلوا مناصب ذات شأن في الدواة . ثم تتلو هؤلاء جميعاً جثة الميت محروطة بمظاهر تبلغ من الفخامة ما يبلغه موكب القائد المنتصر ، وعابها كامل

اللباس المخصص لأعظم منصب شغله صاحبها في حياته ، وموضوعة في نعش بسطت عليه أغطية مطرزة باللونين الأرجواني والذهبي ، ومن حولها الأسلحة والدروع التي غنمها ممن قتلهم من الأعداء ، ويسير خلف النعش أبناء المتوفى وعليهم أثواب وأقنعة سوداء ، وبناته سافرات ، وأقاربه وأبناء عشيرته وأصدقائه ومواليه وعبيده . فإذا وصلت الجنازة إلى السوق العامة وقفت ورثي الميت أحد أبنائه أو أقاربه ، لقد كانت الحياة في تلك الأيام خليقة بأن يحياها الإنسان ولو لم ينل منها إلا هذا التكريم بعد الوفاة .

وكان الموتى من أهل رومة في القرون الأولى من حياتها يهرقون ، ثم جرت العادة بعدئذ بأن يدفنون وإن كان بغض المحافظين من أبنائها ظلوا يفضلون إحراق موتاهم ، وسواء اتبعت هذه السنة أو تلك فقد كانت بقايا الميت تدفن في قبر أضحى فيما بعد مزاراً ومكاناً للعبادة ، كان الأتقياء من أبناء الميت وأحفاده يضعون عليه من حين إلى حين طاقات الزهر وقليلاً من الطعام . وكان لعبادة الأسلاف والاعتقاد بأن أرواحهم تحيا في مكان ما وترقب الأحياء أكبر الأثر في استقرار الأخلاق والمجتمع الروماني ، كما كان لهما نفس الأثر في بلاد اليونان والشرق الأقصى . وكان الموتى حسب الأساطير الرومانية التي اصطبغت بالصبغة الهلينية يلتقلون إلى جنات النعيم أو إلى جزائر المقيمين ، على أنهم كلهم تقريباً كانوا ينزلون إلى الأرض ليستقروا في مملكة الأشباح التي يسيطر عليها أوركوس *Orcus* وپلوتون *Pluto* ، وكان ثانيهما - وهو الصورة اليونانية للإله هيديز *Hades* اليوناني - يحمل في يده مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه . أما أوركوس (وهو الاسم الذي اشتقت منه الكلمة الإنجليزية *ogre* أي الغول) فكان هو الهولة التي تلتهم جثة الميت بعدئذ . وإذا كان پلوتو أعظم الأرباب في باطن الأرض وأعلاها مقاماً ، وإذا كانت الأرض هي المورد الأخير للثروة ، وهي في كثير من الأحيان مستودع ما يتجمع من الطعام والسلع ، فقد كان پلوتو يعبد

أيضاً على أنه إله الثروة والأثرياء ، وأضحيت زوجته - پرسپينا Prosperpina الضالة - ابنة سيريز Ceres إلهة الحب النامي . وكان الرومان يتمثلون بالحجم في بعض الأحيان على أنها موضع العقاب (٧٢) ، وكانوا يصورونها في الأغلب الأعم على أنها مسكن الأشباح النصف المجردة التي كانت في حياتها رجالاً يمتاز بعضهم عن بعض بثواب أو عقاب بل يعانون كلهم على السواء عذاب الظلام الأبدي والنسيان النهائي . « وهناك » كما يقول لوسيان Lucian « يجد الإنسان في آخر الأمر الديمقراطية المنشودة (٧٣) » .